شلالات الدماء

من نحور العلماء

الإمام القاسم بن محمد

الجزء الأول

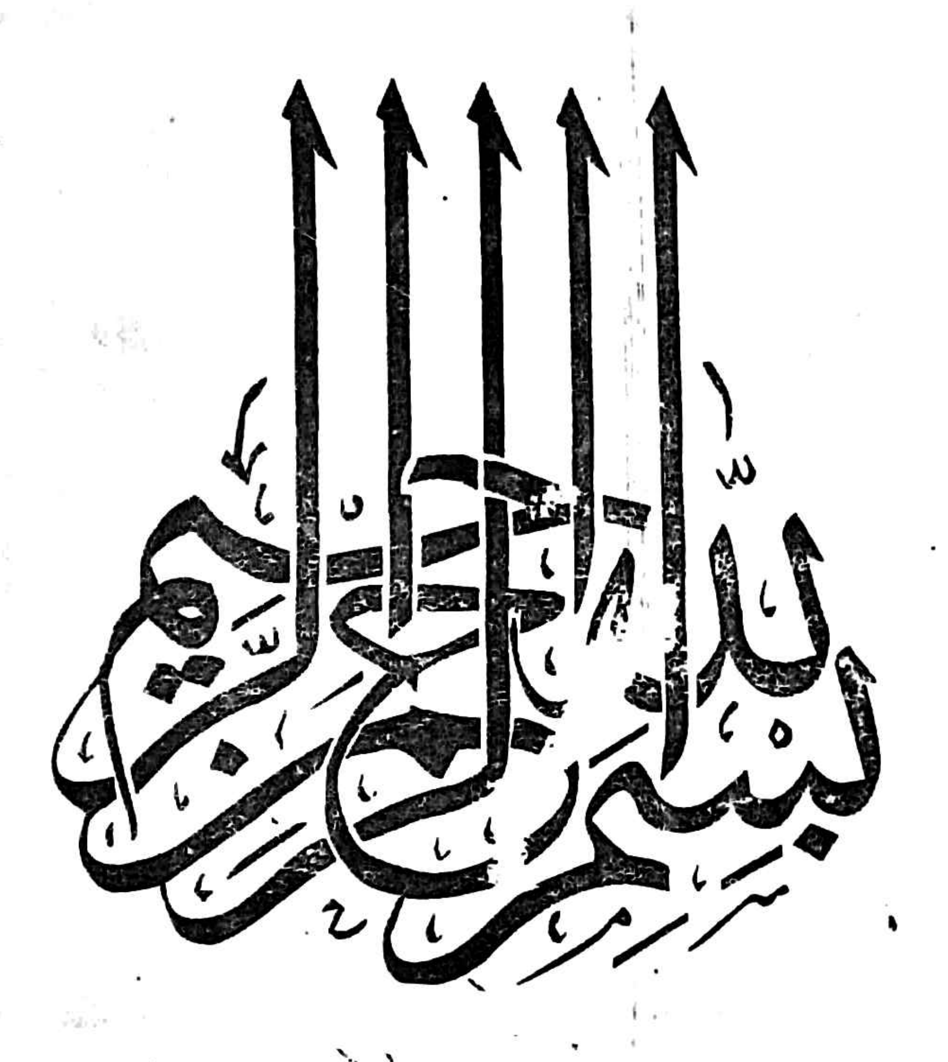
قبة الإمام
القاسم بن محمد
بشهارة

تأليف

علي موسى القيسي

منشورات

صعدة - باب السلام - ت (٥١٢٠٨٦)



شــــلالات الدمـــاء

من نحور العلماء

الإمام القاسم بن محمد(ع)

الجزء الأول

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م

منشورات



مكتبة ومركز الوحدة للكمبيوتر

صعده - باب السلام - ت / ٥١٢٠٨٦

الصف والإخراج

مركز الوحدة للكمبيوتر



الإهـــداء

إلى سليلهم ..إلى الشهيد الأول ..

هاهو ذا مصداق رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا ..

إليك .. إلى تلك الروح التي قطنت عليين ..

وتربعت عن عروش المقدسين .. وانطوت على نفسها مائسة بين أرواح النبيين .. تنتظر الميعاد الأكبر ..

إليك .. والمقل كعين جف مائها .. ونضب معينها ..

والقلب يلفه شوق الدنيا بأسرها للقياك .. وتغمره لهفة العالمين لمرآك ..

إليك يا سيدتي .. رحمة الله وبركاته عليك ..

إليك قدس الله روحك ..

إليك بلّ الله ثراك ..

آمل من الله بحقك وجدك والآل الكرام .. أن يقبل ما أقدم .. وتقبل ما أرسل

* * *



مقدمـــة

لحن الجراح أشجى مسامع الأُباة .. ونكأ قلوب الدعاة .. ولكنـــه الجسـر إلى ضفاف العرفان .. والطريق لمرفأ الإيمان ..

فما من درجة إيمان تزداد بين جنبات المؤمن دون أن يكون لها ثمن ..

والأثمان في قاموس الدعاة لا بد أن تكون باهظة ..

ولهذا دفعها الإمام العظيم .. يستعذب الألم في حياته .

يُتم،جوع،تشرد .. غربة ..آلام مضى في خطها .. وسعى حثيثاً علـــى ضُبـاة السيوف وطلقات البنادق .. وقطع المرو الحاد ..جعلت من قدميه مزقاً متفرقـــة ومن أثوابه قطعاً متباعدة .. وهو مع ذلك في رحاب ملكوتية .. قلـــب معلـق بالسماء .. وبدن يعيش مع الفقراء ..

فمن له فيهم قدوة .. فليسر على خطاهم النورانية .. ليزداد نـــوراً . وليعتلـي صهوة التقى والإيمان ..

وعذراً لله ثم لرسوله .. إن قصرت في إيفاءه جزء ما يستحقه .. وإليـــك أيـها الإمام .. فمثلك يُكتب تأريخه بدم النحور .. لأن تاريخه ساربين ذلك .

وقد رأيت أن تخرج هذه النبذة .. لأنها العبرة الكبرى لكل داعية ..وليجد فيـها دعاة اليوم مأنساً لهم في آلامهم ومعاناتهم .. وألا يستبطئوا الإجابة من الله ..

وآمل من الله القبول .. فمنك وإليك .. لا أرجو وعظمتك سواك .. ولا أبغـي وعزتك إلاك .. فأقبل بجاه هذا الإمام العظيم وجده ..



ميلاد الهدى

في ليلة الإثنين من شهر صفر سنة ٩٦٧هـ ، والليل يلف بظلمتة الآفاق .. ويغطي بجلبابه الموحش جميع الكون هناك ..

وفي بقعة ما .. إنطلقت الآلام تغزو جسداً طاهراً . لتذيقه من المر ألواناً ولينبىء عن اقتراب خروج روح وجسد إلى هذه الدنيا ..

وعلمت المرأة الطاهرة أن أوان الطّلق قد حان.. فحملت ما في بطنها وانتبذت به مكاناً مظلماً .. في بيت مهجور تتوارى به عن أعين الناظرين ..

وأتاها المخاض في ذلك المكان المظلم .. لا تعبأ بالآلام .. بل تنتظر بفارغ الصبر ذلك المولود ..

ومرت لحظات بطيئة كالسنين الطويلة .. وإذا بها تضعه بشراً سويا .. وما راعها إلا صوت يتردد من جنبات ذلك البيت قائلاً :

((**لا إله إلا الله محمد رسول الله**)) ..

كأنما هي بشارة بميلاد مجدد زمانه .. وأن ذلك الوليد هو من سيرفعها عالياً إذا تخاذل عنها الناس ..

ورجعت مستبشرة .. وسمي ((**القاسم**)) ..

وفي حجر الإيمان تربى .. وعلى التقوى والبر تغذى ..

بدأت الأم توليه رعايتها واهتمامها .. فالأب لا يكاد يستقر له قرار .. فقد كان مجاهداً في صفوف المطهر .. يجاهدون ما استطاعوا .. وكان ولده القاسم ينتظر بلهفة وشوق رجوع الغائب .. ببسمته الهادئة ونظرته الوديعة ..

وعند أم ملئت بالإيمان .. وأب حمل لين جنبيه الإباء والتمرد على الظلم .. كان القاسم يتربى .. ومنهما يأخذ ..

وما كاد يبلغ بضع سنوات حتى كان يدهشهم بذكائه .. وكان لايفــزع مما يفزع منه الأطفال .. بل كان قوي العزيمة صافي الفكر ..

وعلمت به العالمة العابدة أم الغيث ((عمته)) .. فخافت عليه .. فــأرادت أن ينشأ عندها نشأة الصبر والتحمل في البادية .. كما كان جــده محمــد (صلى الله عليه وآله وسلم) فأرسلت إليه من يأتي به إليها .. وارتحل القاسم إليها ..

وكانت في الرغيل (غربي جبل مسور).

وصل القاسم إلى عمته .. فاستبشرت به إذ لا يزال غضاً في عــــهد الصِّبــا .. وراحت تعلمه وتربيه على الإيمان .. وتمنحه مع زوجها شيئاً من العلم ..

نشأ الإمام عند عمته مع زوجها العالم الكبير (أحمد بن الحسن الخطيب) ..ولم يبلغ سن الأطفال العاديين إلا وقد قرأ القرآن .. ونشأ معه عمه عامر . وكــان أصغر منه بعام ..

وذات يوم اصطحبته عمته إلى سوق الصميل في مسور – وكان لا يزال ســوقاً بخلاف اليوم فقد انتقل إلى بيت عذاقة – وبينما هي تشتري بعض الأشــياء .. وإذا برجل من بعيد يرقب الإمام القاسم .. فنظر إليه الإمام .. فهاله منظــره .. إذا كان مسيح العين يشبه الدجال في هذه الصفة .. وظل يلاحق الإمام أينمــا توجه مع عمته .. وخاف عندها فلم يرجع إلى ذلك السوق أبداً ..

ورأت فيه عمته نبوغاً وذكاءً .. فلم يكن لها من خيار إلا أن أرسلته إلى مدينــة العلم والنور .. إلى مدينة الإمام الهادي (ع) .. لينيخ رحْله هناك .. وليتزود من بحور علمها الزاخرة .. والتي حوت علوم آل المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) .

* * *

في تلك الأيام ازدادت شراسة الأتراك .. فراحوا يكسرون أبواب الركع ويخوفون الرتع .. وراح المطهر يرمي بنفسه بين أحضان الموت .. والمجاهدون معه يستميتون دفاعاً عن حرمات المؤمنين ..

وما انتبه الإمام يوماً من نومه إلا على نبأ هزَّ كيانه ..فتحدرت دمعات حارقة لا هبة على خده الصغير .. فقد استشهد أبوه برصاص الأتراك .. افتقده رضيعاً .. وفارقه صبياً .. وحرم من حنانه .. وراح يمسح عبراته .. إذ سينتقم المطهر لجميع الحرم ..

ولكن مهلاً !.. فما إن أتم عمره الثالثة عشر .. في نفس الدهر .. إذا بالخبر المفزع الذي أسهر عيون المؤمنين .. فقد ارتحلت روح المطهر إلى روح وريحان ..وأهوت به الأنباء إلى الثرى .. يمد طرفاً كسيراً إلى السماء وقلباً مفعماً بالآلام صابراً ..

وبقلب مجروح راح الإمام يرقب الأحداث من بعيد .. بعين مدركة وبصيرة نافذة .. فمن سيتصدى لهؤلاء .. من ؟!.

ورجع الإمام من جديد بين أمواج العلم والجهاد .. وهو يتجرع الألم .. وفي عينيه إيمان يفوق كثيراً سنه الصغير ..

وأحنى رأسه إسلاماً لله .. وأكمل مسيرة الإيمان ..

* * *

مرت سنوات والأتراك يواصلون اكتساحهم للمناطق اليمنية والتنكيل بأهلها .. ((يسومونهم سوء العذاب)) ..

وتململ الناس في مضاجعهم لا يدرون ماذا يفعلون ؟ .. فقد انقضت بموت المطهر مرحلة من مراحل الجهاد العظيمة التي صنعها أهل البيت (ع) وشيعتهم في اليمن وغيره .. بكل قطرة دماء تسير في عروقهم وبكل نسمة حب لله تتيه في عقولهم ..

فراح المتعشقون للشهادة ينتظرون للحق داع .. ليحملوا الخير للناس ولو على حساب أرواحهم .. حتى تشرق بسمة مظلوم ويبزغ فجر مقهور .. وتستبشر ثكلى بأن رحمة الله وعدله لن يتركا من أيتموها ولدها ..

وفي تلك الأيام قام أحد الدعاة .. الإمام الناصر الحسن بن علي .. فتسارع كثير من العلماء إليه .. ومن ضمنهم الإمام القاسم ..وظل ملازماً له ..وبدأت تباشير فجر تلوح ..

ولكن لم يمض عليها زمان حتى خبت .. ومات بريق الأمل في بعض العيون .. فسرعان ما حبس الناصر ..

وتفرق الناس من حوله .. فقلة الناصر .. وقلة المادة ..جعلا منهم مطمعاً سهلاً ..

ورجع الناس يطرقون باب من ليس له باب ..

عسى أن يظهر من لله يبيع نفسه .. ويشريها ابتغاء مرضاة الله ..

* * *

إرهاصات الدعوة

بلغ الإمام مبلغاً عجيباً في العلم .. صار مشائخه يدرسون على يديه .. فأذهلهم بعلمه وذكائه .. ويُهمه إن رأى معصية في مكان ما .. وكان ذات مرة مع بعض الفقهاء .. فسمعوا في عرض الوادي مزماراً .. فارتحل بأولاده ومن معه عن تلك المنطقة .. ورعاً وخوفاً أن يصيبه إثم .. وما رأى منكراً يقدر على تغييره إلا غيّره .

وتناقلت الركبان فضل ذلك الولي العالم .. ومن قرية لأخرى كان الناس يسمعون عن علمه .. وعن مكارمه العَلَوية النبوية .. مما جعل العلماء يتشبثون به .. وينهلون من علمه .. وجعل من قلوب الناس مرفأً لحبه ومهبطاً لوده وطاعته ..

وكان الإمام يشاهد ما يحصل للناس من ظلم وكبت .. وراح يستعيد آيات الله التي تهد الصخور .. تأمره بالقيام بأمر الله كغيره من المؤمنين ..

فراح الإمام يعض الناس عن الجهاد وفضله .. وكان ذلك مقصوراً على العلماء والمتعلمين .. ويدعو العلماء أن يظهروا علمهم .. فقد بدلت أحكام الله ..

ووصلت إلى الأتراك أخباره .. فبدءوا بالتحرش ضده .. وحاولوا الإمساك به .. ففر منهم إلى بلاد الشرف .. فقد رأى فيها ملاذاً ومهرباً ..

وظل هناك مختفياً يعلم الناس معالم الدين .. فكانت بمثابة تغيير ثقافي من مخلفات الحكام ..

* * *

كان الإمام قد عزم على إظهار الأمر .. ولكنه أراد أن يجمع الناس لديه .. فبدأ بمراسلة العلماء .. وأتوا إليه فرادى .. يعضهم ويجعلهم رسلاً إلى بني قومهم ..

ومن ضمن الرسائل رسالة وصلت الحسن بن الناصر .. وكان في العصيمات .. فراح يحث الخطى ليصل إلى الإمام ..

ووصل الحسن ..فأجلّه الإمام وأكرمه .. وحياه .. وراح يكلمه عن وضع الناس وما آل إليه مصيرهم والألم باد على وجهه .

الإمام : هذا الجور قد عم والشرع الشريف قد أدلهمّ .. ولا يسعنا عند الله إلا الذب عن دينه ومجاهدة أعدائه ..

وسكت الإمام ..

ولما سمع الحسن هذا الكلام .. أخذته الدهشة ..

مع اعترافه بكمال الإمام ولكن كيف في هذا الجو المظلم ؟!..

وقد كان يقول ((**وكأنّ الإمامة ما تعرض في فكري لما أرى من شرارة الخلق وقوة سلطان الترك على الأرض**)).

الحسن : يا سبحان الله .. وأي موضع تستقر فيه حتى يعود رسولك .

الإمام : معي على هؤلاء القوم عونان اثنان عظيمان.

فانشرح صدر الحسن قائلاً : لعلهما من ملوك اليمن كعبد الرحيم بن عبد الرحمن والأمير أحمد بن محمد صاحب كوكبان .

الإمام .. بثقة عميقة : الله سبحانه العون الكبير الغاضب لدينه .. المرجو لنصر أوليائه .. والثاني : ما ترى من ظلمهم الذي قد عم القريب والبعيد والرفيع والوضيع ، فما ننثني إنشاءالله عن ذلك .

وانتشى قلبه من تلك العبقات النبوية .. ورجع كغيره من العلماء إلى بلدانهم بقوة نافت على النجوم .

* * *

شرده الخوف

لم يكن في اليمن مكان يخلو منه عيون الأتراك وجواسيسهم .. فقد بلغهم خبر الإمام والعلماء الذين ترددوا عليه .. فقاموا بإرسال من يأتي به .. ولكن الإمام انتقل من بلاد الشرف .. وإلى الحيمة بصنعاء كان نهاية مطافه ..

ودخل أحد المساجد فيها .. وكان فيه حلقة علم يدرسهم فيها الفقيه المحدث عبد الرحمن الحيمي .. فقص عليه الإمام كتاباً .. وأقام بين الطلاب لا يعرفون منه سوى حدَّة ذكائه وأنه من أهل البيت (ع).

فشغفوا به حباً .. ولكن الفقيه كان يكره بقاءه .. لأنه عرفه وفي بقائه خطر عليه .. وراح يحث الإمام على المسير من عنده ..

وعندما رأى الطلاب ذلك من شيخهم أجمعوا أن يهجروه ظناً منهم أن شيخهم يبغض آل محمد عليهم السلام ..

ولما هموا بتركه جمعهم قائلاً : يا فقهاء .. هذا إمام هذه الأمة وبلادكم قد غلب عليها الترك .. فلا نأمن أن نرغبه في المقام فيظهر اسمه فيقبضونه من عندنا ..

وانجرحت مشاعرهم .. أهذا هو الإمام الذي ما عاد له من مكان يأمن فيه حتى عند طلاب العلم .. وقرروا مواصلة التعلم إلى حين ..

وواصل الإمام تخفيه حتى دخل صنعاء .. وهبت نسمة خبر أزكمت آناف الأتراك عند وصوله .. وعصفت قلوبهم .. فأسهرت لياليهم وحاولوا البحث .. ولكن أين ؟..

مما حدا بهم إلى أن يستعينوا بالمنجمين .. وكان أحد المنجمين اسمه عبد القادر الجعدي من صوفية اليمن المحللين عند سنان باشا.. فأمره أن يكشف عن مكان الإمام .. فعرف مكانه ..

ولكن حب الإمام كان قد تربع في قلوب الناس جميعاً في اليمن ..

فأرسل إليه عبد القادر قائلا: انج بنفسك إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فـــاخرج إني لك من الناصحين .

ولما وصلت الرسالة .. انتقل الإمام من مكانه وذهب إلى مكان آخر .. ودخـــل مسجد داود واستقر في غرفة للمهاجرين لطلب العلم .. وكان الإمام يريد رؤية زميله في الحرب العلامة محمد بن يحيى سلامة .. وقد كان مقيمـــاً في مسجد قصر الأتراك إقامة جبرية ..

وكان في مسجد داود كثير من العلماء .. فكان الإمام يلبس لباساً يخالف جميـــع لباسهم من الصوف وغيره .. فيحسبونه من الهنود لا من عرب اليمن .

ولم يكن أكثرهم يعرف الإمام سوى اسمه وعلمه ..

وأما صورته فخفيت حتى على كبار العلماء .. وبعضهم كان يعرفه ويخفيه ..

وفي المسجد كان العلماء يتدارسون .. والإمام معهم .. وما راعهم إلا والمسجد قد امتلأ من جنود الترك يطلبون جميع من في المسجد .. وخاف مـــن يعـــرف الإمام منهم ظناً منهم أنهم قد كشفوا مكانه ..

ولكن الأمر كان خلاف ذلك .. فقد طلبوهم لمنحهم العطاء .. فهدأت قلوبهـــم وذهب روعهم .. وخرجوا من المسجد فتأخر الإمام عنهم .. ودخـــل الحمام يتوضأ..

فصاح به بعض الخدم : أكمل الطهور يا فقيه .. والحق بالفقهاء .

فلما ذهب الخادم ..خرج الإمام ومثل بين يدي لملك الكون وناجاه بركعتـــين أودعها زفراته وآهاته ..

ولما أكمل لحق بالفقهاء كأنه تابع لهم .. ولما وصلوا إلى المسجد التركي .. تجاوزت قدم الإمام عتبة المسجد .. وإذا بقلبه يخفق ويضطرب .. فقد صار يقف وجهاً أمام العلامة محمد سلامة .. واختلجت المشاعر .. ولما تتمالك العيون إلا أن تهريق مائها .. وارتفع نحيب الإمام وزميله .. فكلم في وجه الأتراك وقفوا أيام الناصر .. ورجعت بهم الذكريات إلى تلك الأيام ..

فتاقت نفوسهم شوقاً لبارئها لحوقاً بمن تقدم من المؤمنين .. ولم تطل بهم المناجلة .. فقد ارتاب منهم حرس القصر .. عندما سمعوا البكاء ..

فتلافى العلامة محمد الأمر قائلاً: ((هذا فقيه من بلادنا أخبر بموت أصحاب لنا)).

ثم أخرج من جيبه شيئاً من النقود وأعطاها للإمام على أنها جعل لإخباره .. ثم ودّعه وارتحل قبل أن يكشف أمره .

فراح يحث الخطى حتى وصل إلى همدان قرب صنعاء .. ولكن بعض الأتراك كان قد عرفه .. فأرسل الباشا حملة لاحقته إلى ضلع .. ولكنه خرج منها قبل وصولهم .. وردهم الله بغيضهم لم ينالوا منه ..

ووصل الإمام إلى شبام .. وفي جانب منها دخل مسجداً ينتظر فيه دخول وقت الظهر .. وكان يحكمها والي الترك الأمير أحمد بن محمد .. وبينما الإمام قابع في زاوية المسجد بثيابه تلك .. إذا بالأمير وبعض جنده بجانب المسجد .. ولما حضرت الصلاة دخل الأمير .. وقد انكب الإمام على وجهه رجاء ألا يعرفه . فلم يلتفت إليه الأمير .. وتركه.

ولما خرج بعد الصلاة إلتفت إلى أحد خدمه قائلاً : لعل ذلك الذي في المسـجد ابن أخ السيد عامر ،وقد بلغني علمه ، فاذهب إليه بهذه الخمسة مـن حـروف الذهب يصل بها عمه .

ولم يكن الأمير يعرف ما يفعله الترك حينها .. وأنهم يطلبون ابن أخ السيد عـامر – الإمام القاسم – وإلا لما تردد لحظة في اعتقاله .

وانطلق الخادم – وكان اسمه الحوَّار – إلى الإمام ،وكان قد هرب بعد خـروج الأمير ، فأدركه بعد تعب وجهد .. ولما وصل أعطاه الذهب فلم يقبل الإمـام .. وردها قائلاً ..

الإمام : هي لك .

الحوار : أخاف على نفسي .

الإمام : ومن يُعلم الإمام أني لم أقبضها منك .. إذ كيف يقبل مالاً خرج مـن أموال الضعفاء والمساكين .

فرجع الحوار غير مصدق أنه تملكها .

وأمسى الإمام وحيداً في منطقة حبابه ..

وفي الصباح كان الإمام يجمع أمره وعزمه .. ثم واصل مسيرة الجـهاد متوكـلاً على الحي الرحيم .. وفي هذه المرة كان يرنوا إلى تلك الجبال الشـاهقة .. إلى حجه وما جاورها .. عسى أن يجد فيها الملاذ والناصر .. ويجد فيها ذويه وآله .

* * *

طلعَ البدر أكثر توهجاً في تلك الليالي .. كأنه من صفائه يحاكي تلك الجبـال .. أن رفقاً أيتها الجبال بذلك الولي الذي تمزقت أقدامه بصخورك .. فكوني أكـثر رأفة به ورقه ..

راح الإمام يواصل مسيره في الليل والنهار .. يقتات على كسر يابسة من الخبز .. وما تأتى له في الطريق..

ووصل الإمام إلى بلاد حجة .. منطقة العبال .. واستقبله علماؤها .. وارتفعت حواجبهم دهشة وألماً لحال الإمام .. فقد كان في حالة يرثى لها .. ومن فرط فرحهم به أظهروه في بلادهم وشهروه ظناً منهم أن أميرهم عبد الرحيم سيكون عوناً لهم لأنه كان يحب العلماء.

ولكنه كان حباً أجوف .. ما إن يعارض دنياهم حتى ينقلب إلى حقد أسود ينهش لحوم من يقف ضدهم ..

وما إن تألق نجم الإمام وعلا صيته بأنه يدرس في العبال حتى جُن جنون الترك .. وأرسلوا إلى الأمير برسالة تهديد مفادها ((لا عذر لك في القبض على القاسم)).

* * *

تحرك الأمير عبد الرحيم لوقته .. وأرسل بعضاً من الجنود إلى العلماء ليأتوا بهم على حين غفلة في المسجد ..

ووصل الجنود إلى باب المسجد يأمرون الجميع بإجابة الأمير ..

فخرجوا إليهم ووقفوا بالباب يتحاورون معهم .. ليتركوا المجال للإمام ليهرب قبل أن يدركوه .. ولم يترك الفرصة تضيع بل خرج من طاقة المسجد وانحدر إلى الشعب هارباً عن أعينهم ..

وذهب الجنود بالعلماء إلى الأمير .. ولم يعلموا بهروب الإمام .. ولما وصلوا إليه تحول إلى كلب مسعور .. فهتك حرماتهم وراح يعذبهم ويجلدهم بالسياط .. ووصل به الحد إلى قتل صهره العلامة (محمد بن صلاح) .. ولم يرع فيهم إلاً ولا ذمة .

وأرسل مائة جندي في إثر الإمام (ع) .

* * *

((إذ هـو فـي وادي مُـور))

وصل الإمام إلى أسفل الشعب ودخل بيت الشيخ (محمد الأدبعــــي) فحماه وآواه .. وفي اليوم التالي خرج مع الإمام حتى وصل بداية وادي مور المـؤدي إلى بلاد الشرف .. ثم ودعه وافترقا ..وراح يغذُّ الخطى

وأما الجنود فقد خمنوا الطريق التي منها مشى الإمام القاسم .. فساروا في نفس الطريق ..

وتسلل الليل بهدوء والجميع ينهب الطريق ..ذاك يفر بدينه .. وأولئك يمزقـون دين الله ..

وراح الإمام في مسراته بالليل وحيداً .. فريداً .. لا مؤنس له من بني البشـر .. ولا رفيق .. ومن جنبات الوادي راحت الذئاب تعلن استنكارها مـــن وجـود الإمام .. وقد أتعبه السهر والسير ..وأضناه قلة العيش .. وأوحشته ظلمة الليل .

وما به إلا وقد سمع طبول ذئاب البشر في جنب الوادي تعلن عـــن قدومـها .. فأسرع بالإلتجاء إلى أشجار كثيفة في جنب الوادي .. وتوارى فيها .. ومـا أن اقتربت حتى سمعهم يتحارون ..

أحدهم .. وهو يسب الأمير : يأمرنا بالمسير الليل ويحمّلنا هذه المشقة على فقيـه واحد .. ما عسى أن يفعل ؟ .

عبد القادر (هازلاً) : نعم تواريه مثل هذه الشجرة .

وتناول حجراً ورمى به إلى أعلى الشجرة التي يختبئ عندها الإمـــام .. وانطلـق ذلك الحجر ليصيب أشرف جبين ارتفع في ذلك الزمان .. وسالت الدمـــاء .. دون أن يتأوه .. شاكية لمولاها .. ضارعة لسيدها ..

وتضاحك القوم ..

وما يدرون أنهم انتهكوا بفعلهم .. وما دروا أي صيد تركوا خلفهم..

قائلين : لا تقتله يا عبد القادر .

وتمايلت أجسادهم ضحكاً ..وواصلوا المسير وأعمى الله قلوبهم وبصائرهم .

وكأنها نفحات جده (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ كان في الغار حفظته بين الأشجار .

* * *

((وعاد الغائب))

دخل الإمام إلى القرية التي طال البعاد عنها .. وصل إلى أولاده وقرابته .. فلما رأوه بتلك الحالة .. أشعث أغبر ساحت دموعهم حرى على مآقيهم .. أيفرحون أم يكون حزناً لتشرده في القفار وتخالف الليل عليه هناك والنهار ؟..

ولكن مهلاً بني القاسم .. فإن الجنان موعدكم ..

ووصل إلى أخواله في تلك الليلة .. وكلهم يرجوا أن يترل الإمام عنده .. ولكن الإمام اعتذر عن المبيت عند أحد .. وفضّل أن يكونَ المسجد هو مقرّه .. فأمرهم بإخلاء المسجد وتركوه ضيف ربه .

ولكن الإمام كان قد سلب الأمان حتى من بيت الله .. فقد أضحوا ينبشون الحجر والمدر علّهم يجدونه ..

فخرج الإمام خائفاً يترقب .. حتى وصل إلى مزرعة قريبة ..

الله من أهل بيت خافوا في بيوتهم .. !

وخافوا بين أولادهم وأزواجهم ..

واستوحشوا فرقاً حتى في بيت ربهم ..

الكل لهم خصم عنيد .. القريب والبعيد ..

فما عاد لكم في الدنيا مقر ..

لأنكم سيدي طهر يمشي بين الأرذال .. فما محلكم إلا السماء ..

* * *

جلس الإمام في المزرعة .. ولما أراد النوم .. سمع جلبة وحركة .. فظن أنهم الترك .. فقعد يستمع ..

وإذا به يسمع صوتاً بقربه ولا يرى أحداً .. فقرأ الإمام آيات من القرآن .. فإذا بإثنين يقرئان معه .

فسألهما .. فقالا من فقهاء الجن وصلا لزيارته ..و طلباه أن يعلمهما .

فسألهما عن أسمائهما ، فقال أحدهما: جابر التركي .

وضحكا قائلين : نحن نكره الترك مثلك وضلا يحادثانه ، ثم اعتذر الإمـــام عــن تعليمهما لما هو فيه من التخفي والمشقة .. ودلهما على العالم علي بن إبراهيـم في الشاهل .. وودعاه وانصرفا.

روحي فداك سيدي .. لما تركك الناس هيأ الله لك الجان وقديما كانت لجــدك المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) ..

ورجع الإمام يفترش الثرى متوسداً له .. يتلحف السماء .. أنيسه الله .. وهــل بغيره أُنس ؟.

* * *

ولما خاف الإمام من انكشافه ودع ذويه وخرج من بلاده إلى القرى المجاورة حتى لايعرف الظالمون مكانه .. وسار يقطع النجود والآكام ..دليله الله.

وذات ليلة والإمام في هدأة الليل بين أكناف الوادي .. لا يكاد يســمع سـوى صفير الحشرات .. وتخالف البعوض .. والسكون بين فينه وأخرى يلفـــه .. إذ

استوحش وضاقت نفسه قليلاً .. إذ لا مؤنسٌ له .. وراح قلبه يخفق بأن هذا هو من أجل الله فصبراً ..

وما به إلا وقد سمع شيئاً يخفق من فوق رأسه ..

الإمام : ((حصل معي في بعض الليالي وحشة .. فأحسست من فوقي شيئاً كهيئة الطير أو نحوه .. لا أراه وهو يسير في الهواء معي ويناديني باسمي)) .

وبلغ إيمانه درجة عالية .. فهاهي عناية الرحمن تكتنفه دائماً .. واستوحش الإمام من كل الناس .. فلم يعد يقيم في بادية ولا حضر.. لأن في كل مكان عيناً للترك عليه .. فقد أسهر لياليهم وأضمأ هواجرهم من الخوف.. وبين الجبال العالية أمضى شطراً من عمره .. ليس له بين صم الحجار إلا الله .. فما عاد القريب له يغني ..ولا الصاحب عنه يجدي .. بل صار وجوده بينهم يعني الموت له ولهم وللدعوة المقدسة .

وفي مر الأيام ازدادت حالته سوءاً .. بلا مأوى .. بل الطير والوحش له مأوى وهو لا مأوى له .. ولهم زاد ومتاع بين أولادهم .. وهو مشرد لا زاد له ..

فراح بين الصخور يهيئ له مكاناً يجعله بيتاً يبيت فيه .. ويستجدي قوتاً من هنا وهناك يقتات به ..

وانقطعت عنه أخبار الناس .. وانقطعت أخباره عنهم .. وجاشت عاطفة الأبوة في قلبه .. إذ لم يعد يدري بأخبار أولاده ..فهم لا يزالون في مقتبل الصبا .. ليس لهم إلا الفقيه (عبد المغني بن عيسى الشرفي) يرعاهم ..

فأراد الإمام أن يسأل عن أخبارهم ويعرف مكانهم .. فقد تباعدت المدة ..

فخرج إلى طريق تؤدي إلى سوق من أسواق حجور .. وكان خاله يذهب منها إلى السوق .. فانحدر الإمام في الجبل إلى أن صار فوق الطريق .. وطوال يومه

ظل بين الأشجار .. يرقب المارين في الطريق .. يراهم من حيث لا يرونه .. دوئما لقمة عيش واحدة .. ولكنه لخفته وقوته لم يقعده الجوع .. وطال انتظاره .. وبدأت الشمس بالغروب وإذا بشبح يترآى في البعد .. فلما قرب إذا به خاله..

فاستبشر الإمام ونزل من فوره يريد أن يلتقي به .. يحدوه الشوق وتملؤه الفرحة في السؤال عن أولاده وأقرباءه بعد طول الفراق .. وشمر مسرعاً .. ولكنه لم يكن يعرف أي صورة يحملها ..

روحي فداه .. فقد ازداد وجهه سمرة .. وثيابه قد تدلى بعضها على بعض . وشعث شعره وطالت أظافره .. وتدلت لحيته بلا نظام ..

فلما ترآى لخاله انخلع قلبه وطار لُبُّه .. يظن أنه قاطع طريق .. إذ لم يعد يعرفه .. وأطلق ساقيه للريح .. فناداه الإمام بصوت خافت.. فلم يتلفت خاله .. فلحق به الإمام .. فلما التفت خاله ورآه اشتدت سرعته وراح يصيح بمن سبقه ((أدركوني)).

فلما رأى الإمام ذلك خارت قواه .. وتوقف عن اللحاق به .. ونكس رأسه ألماً .. ورجع منكسر القلب خاوي القوى .. وساحت دموعه على خديه وانثالت على لحيته .. وعاد أدراجه كسيز البال .. ولكن إلى أين ؟!.. إلى جبال الغربة والوحدة والوحشة .

وارتحل قلبه إلى الله يشكو .. فقد خاف منه حتى أقرباؤه .. وهجره القريب والبعيد .. يهرب من أعدائه وأقرباؤه يهربون منه ولا يعرفونه ..

ورجع يلتمس لقمة العيش من البدو .. ويواصل مسيرة الخلوة ..

شرده الخوف فأزرى به كذلك من يكره حر الجلاد

ووصل الإمام إلى كهفه وتوضأ وتوجه للصلاة .. وإذا بحيوانات صغيرة تشـبه البقر يركب بعضها بعضاً .. فلما ترك الصلاة غابت .. ولما رجع إلى الصـلاة رجعت .

الإمام : ((ففارقت المكان ، وعرفت أن ذلك مأوى الشياطين و لم أعد إليها بعدهـا)).

من خاض بحر الموت أسـود مزبـداً فاجتـاز فـوق أذيّـه المتلاطـم
مـن فـارق الأبنـاء لا لغضاضـه سبعاً وكـان مجـاوراً لأراقـم

* * *

((إن معي ربي))

انتقل الإمام إلى كهف بعيد عن الأول يأوي إليه .. ونفد طعامه .. ولم يبق لـه كسرة خبز واحدة يقتات بها . وسار عليه الوقت بطيئاً دون أن يجد لقمة واحـدة .. وأيامه طواها على الجوع حتى أقعد .. وخارت قواه .. ولم يعد يقدر علـى الوقوف .. ولما رأى الإمام ما ألمّ به من ضعف وشدة تشارف به على المـوت .. توجه إلى القبلة وطوى ثيابه عليها .. كأنها كفنه .. ثم رفع طرفاً كسيراً إلى سمـاء الكهف ..

قائلاً بصوت مبحوح .. ملؤه الألم والحرمان : ((يارب لا أقدر علـى شـيء أحفظ به بدني)).

وراح بريق عينيه يخفت شيئاً فشيئاً .. وبدأ عقله ينتقل إلى عالم الغيبوبـة .. ولم يعد يشعر بشيء .. إلا الآلام تنهش أجزاء جسمه لتجعل كل شيء من حولـه قاتماً .. ولكن لم يكن الله ليخزيه .. فما بالإمام إلا بشيء يحركه بهـدوء وبفـم حنون .. ففتح عينه .. وإذا بظبية كبيرة يطل من عينيها حنان الدنيا كله ..

فنهض بكل قوته يريد الإمساك بها .. ولكنها بقيت ساكنة لا تتحـــرك .. بـــل فارقت بين رجليها .. وإذا بضرعها مملوء حليباً .. فجعل الإمـــام – رحمـــة الله وبركاته عليه – يرضع من ثديها حتى ارتوى وشبع منها .

وبات الإمام يقرأ تلك الرسالة في قلبه .. ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ .

((مصحف وسيف))

وارتحل الليل .. ودخل الصباح وقد انتشى الإمام بعبقات إلهية بديعـــة .. ومـــع شروق الشمس صعد الإمام أعلى الكهف يتدفأ بحرارة الشمس .. وبينما هـــو كذلك وبين يديه يرقد كتاب الله وهو يتلو آياته وبجانبه سيفه .. وإذا باثنين مـــن بدو حجور معهما بندق يطلبان صيداً .. ففزع الإمام منهما وقبع مكانه .. ينظر ما يفعلان .. وإذا بأحدهما يصوب البندق ناحيته واقترب منه أكثر .. وأحـــرق الفتيلة .. فلما رآه الإمام يصوب ناحيته ارتمى على الأرض حتى لا يصيبه أذى .. وانطلق ما في جوف البندق .. حينها استل الإمام سيفه ووثـــب نحـــو الرجـــل ..وأمسك به وهو يستنقذ أخاه الذي هرب .

الإمام .. وهو يمسك به : يا ظالم ما فعلت بك حتى تقتلني ؟.

فأنكر الرجل .. وأقسم أنه ما أراد قتله .

الإمام : فمن رميت ؟.

الرجل : ماكنت أراك .. وإنما كان أعلاك ظبي كبير فرميته .

الإمام : أرني موضعه .

فانطلق به الرجل .. فرأى آثار الظبي .. فعلم أنها الأم الحنونة التي أتت البارحـــة .. فالتفت إليه ..

الإمام : إذهب فقد عذرتك فيما فعلت .

ولكن تلك الأخلاق كانت قد تربعت في كل قلب .. فصارت له سيماء يعرف بها .. فمشى البدوي قليلاً ..

ثم رجع وصاح : إنك - والله أعلم - سيِّدي قاسم .

الإمام : نعم .

فارتمى يعانقه عناق غربة واشتياق .

الإمام : من الذي فرَّ عنك ؟.

الرجل : أخي .

الإمام : أدركه وردَّه .. لألا يجتمع علينا البدوان .. ولا حاجة لنا بالاجتماع بهم .

فلحقه وأخبره الأمر .. ورجعا إلى الإمام .. فجعل الإمام يعظهما ويذكرهما بالله .. حتى انهملت الدموع .. وأعلنا لله التوبة ما قد اجترحا .

وقد كان قريباً منهم سوق تباع فيه الخمور .. والربى فيه والزنى.. وهو من الأسواق التي يُعبث فيها الأتراك .

الإمام : تجدان أحداً على مثل رأيكما يعيننا يوماً واحداً نهبّ سوق طهنَّه ونغير المنكرات التي فيه .

أحدهم : لا نعلم أحداً .. ولكننا نفعل .

وبعزيمة صادقة قاما من عنده وتواعدوا أن يلتقوا في اليوم الثاني فوق سوق طهنة ببنادقهم .

ورجع الإمام إلى كهفه وأخذ بندقه وثلث رطل من البارود من صنع يده الشريفة .. وخرج من الكهف وتوجه في تلك اللحظة إلى المكان المحدد لهم في الجبل فوق السوق ..

ومر عليه الليل وهو يعاني من الجوع والوحشة .. وارتحل الليل .. وبدأ النـــهار بالتقدم .. وانتظر الإمام حتى حمي السوق .. وبدأ الترك في ممارسة عملـــهم .. يفعلون المنكرات دونما استحياء من أحد .. وينهبون النساء والأطفـــال .. دون زاجر أو رادع .

ووصل الرجلان إليه وسلما عليه .

أحدهما : ماذا نفعل؟..

فرأى الإمام ألا يرجع حتى يفزع الظالمين وينتصر للمظلومين .

الإمام : ما عسى أن نفعل (يحدث نفسه) .

ثم فزع إلى الله في مناجاة قلبية ..

وقال : اشحنا بنادقكما .

فشحناها من بارود الإمام .. ووجهوا بنادقهم إلى السوق ..

ولكن الإمام استوقفهما قائلاً : على رسلكما.

ثم تيمم بالتراب وارتحل في مناجاة عميقة مع الله .

ولما أكمل بكى ضارعاً إلى الله قائلاً له : هذا جهدي .

ورجع إلى صاحبيه ثم أمرهم أن يصيحا .. ((نصر الله الإمـــام)) دون تسـمية ويطلقوا جميعاً ما في بنادقهم ..

وترددت التنصيرات للإمام ..

وأجابت القبائل ذلك النداء .. وراح جميع من في السوق يـــرددون الشـــعار .. وهاجم الجميع الأتراك .. وأخذوا أسلحتهم .. ونزل الإمام يقاتل الأتـــراك .. واجتمع الناس حوله .. وقد ارتفعت رؤوسهم بعد ذلتها .. وبايعوا الإمام علـى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وامتلأ قلبه بشراً بأن أفزع الظالمين .. مقتدياً بمن تسمى باسمه .. حين قال معناه ((لئن أبيت ليلة مفزعاً لظالم خير لي من الدنيا وما فيها)).

ورجع الإمام إلى مكمنه بعد هذا النصر المنشود..

* * *

انبرت أقلام علماء السوء والبلاط في تلك الأيام لتصدر الفتاوي لِرعَاع الناس بأنه تجوز مداهنة الظالمين ومداراتهم..

فما كان التشرد في البلدان ليمنعه من إسكاتهم .. فرد عليهم بكتاب ((التحذير)) ..ثم انتقل إلى بلاد الشرف مرة أخرى .

فشدت إليه الرحال .. وقصده الرُّحَّال .. يتلقون على يديه العلم .. وارتفع إلى آماق السماء نجمه .. وإلى حلوق الترك شوكته .. وأُرسلت مجموعة من الجند ليمسكوه .. ولكنه كان قد اختفى دون أن يشعرْ به أحدٌ من الأتراك وأوليائهم.

واتخذ له بيتاً سرياً هناك يدرس فيه العلم .. واجتمع حوله خلص أصحابه يتعلمون عنده .. وضل مدة يواصل التعليم في خلالها ألفَّ كتاب ((الأساس)) الذي يعْد من روائع الإمام وكذلك كتاب ((الإرشاد)) وردود على بعض الصوفية في قصيدته ((الكامل المتدارك في بيان مذهب المتوصف الهالك)).

وضل الإمام في بيته ذاك حتى بلغ قلق الأتراك منتهاه .. فظلوا يتحدثون عنه كثيراً في مجالسهم ومنتدياتهم .

* * *

إرهاصات الدعوة

راح الإمام يستحث العلماء لإبراز علمهم في صورة عملية .. بالقيام .. فلم يـر من أحد استجابة .. عندها دعى الأعلام منه إلى الحج إلى بيـت الله الحـرام .. فالدعوة لله .. فلتكن معاقدها من بيته .. واتفقوا على الإلتقاء في المدينة المقدسـة (صعده) .. فارتحل الإمام مع مجموعة من العلماء .. ولما وصلـوا في ذهبـان توقفوا فيها قليلاً ..

ثم جمع أصحابه ووعظهم .. ثم قال في نهاية كلامه : ((هذا السـيد عبد الله يصلح للإمامة .. ونعلم عليه هفوة كانت إلى الإمام الحسن (ع) ، فـهلسوا يـا أصحاب ندخل عليه .. ونسأله التوبة عنها .. ثم نبايعه ويظهر نفسـه للجـهاد ونعود فنجاهد .. ونؤخر الحج .. فالجهاد أهم وأقدم)).

وقد كان هناك السيد العلامة (عبد الله بن علي المؤيدي) مقيماً مع أهله .. لأنه كان أيام دعوة الإمام الناصر (الحسن بن علي) يعارضه ويدعوا لنفسه فلم يجبه أحد .. فاختفى بعد اعتقال الناصر .

فلما دخل الإمام وأصحابه إليه استقبلهم واستضافهم ضيافة حسـنة .. ولكـن الإمام لم يمد يده إلى شيء .. ولما انتهت الضيافة كان الإمام قد أوكل إليـهم أن يكلموه .. ولكن أحداً منهم لم يتكلم ..فتكلم هو ..

الإمام : يا سيد عبد الله .. الأصحاب وصلوا إليك يطلبون التوبة والإعتـذار إلى الله سبحانه مما كان منك إلى الإمام الحسن ، ومرادنا بعد ذلك نبايعك على أنـك تنتصب لجهاد الظالمين .

وانتظروا المسارعة منه لقول الإمام (ع) .. ولكن عبد الله إلتفـت إلى الفقيـه (محمد بن علي اليعقوبي) – وكان من خلص أصحاب الناصر .

فقال له : تَذكر يا فقيه محمد وفودي على الإمام الحسن إلى المدان وما قابلني بـه ،وأني طلبت – فنجال عسل – ومضى وهو ظالم لي ؟.. ونال منه.

ولما أكمل.. كان الإمام يتذكر أيامه مع الناصر وجهاده المرير .. وكأنه يتذكـر أيام التشرد والجوع بعد الناصر ..ويردد ((والله ما أفلح من جعل بطنه غرضـاً للدين وأهلكه الهوى عن اتباع اليقين)).

ونهض الجميع مقتنعين أن ذلك لن يفيد .. وخرجوا من عنده وواصلوا مسـيرتهم إلى صعده .. وفي الطريق نزلوا بالفقمين يصلحون الطعام .. فمر بالإمام أحـد المساكين فأعطاه من الطعام .. فرآه بعض الترك وهو يطعمهم .

فسار من عنده وهو يقول : يا هذا الرجل الذي تفرق طعامك لمن مر عليـك .. لا يراك الترك فيظنوك السيد قاسم .

فالتفت إليه الإمام .. ولكنه ذهب .. فقام الإمام بتفريق أصحابه حتى لا يلفتـوا الأنظار .. وواصلوا المشوار إلى صعده متفرقين .

ودخل الإمام ومن معه صعده .. وتنسموا عبقاتها الخالدة التي هي بخلود الإمـام العظيم ((الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين (ع))) .

وكان أول مبتدأه بالصلاة في جامع الهادي (ع) .. ثم عطف على قـبر الإمام يزوره .. وظل يدعو عند القبر ويناجي .. ثم ودعه والتحق بأصحابه .. وكـانوا خارج العشة ينتظرونه .

وتوافد العلماء من كل مكان .. من ذمار والظاهر وصنعاء وغيرها .. خرجـوا ملبين نداء الله .. حتى من كان مسجوناً أمثال العلامـة (محمـد سلامة) .. وانتظرهم الإمام في شعب خارج العشة .. وهم يتوافـدون عليـه يصافحونـه وينصرفوا عنه حتى لا يلفتوا انتباه أحد .

وارتحلوا جميعاً إلى البيت العتيق .. وكان هو إمام الصلاة في كل الأوقات .

* * *

وصل الإمام وأصحابه إلى الطائف .. وواصلوا السير .. ثم نـام الإمـام قـرب مشهد عبد الله بن العباس (رضي الله عنه) وقام من مرقده .. والتف إلى علي بن أبي الرجال ..

الإمام : يا فقيه علي .. قد رأيت أني أقيم في هذا الموضع وأعاهد البيت الشريف من هذا الموضع – على الجهاد – .

علي : على ما ترى .

وقد كان في قلب الإمام شيء من أهل اليمن .. فعزم في نفسه أن يترك اليمن .. وعندما أراد أن يهاجر إلى ديلمان وجيلان .. تراءى في المنام أنّ الإمام الهـادي بايع له أهل اليمن .. فاستبشر الإمام وانطلق عائداً إلى اليمن .

* * *

تألق في سماء الإيمان والعلم .. وشع فمدّ أنامله إلى جميع التائهين .. فأروى ضمأ أكبادهم المتعطشة .. وارتفع أكثر .

فتلقى (ع) رسائل من العلماء يطالبونه القيام بأمر الله .. وألحوا عليه بشـدة .. وقامت الحجة عليه .. وكم كان يهرب منها .. بل ويعرضها على كثير من العلماء عسى أن يكونوا هم المبادرين .. ولكن العلماء راحوا يستحثونه من جميع المناطق وأنشأ العلامة (الشكايذي) قصيدة قتل بسببها .

ضاع الوفاء وضاعت بعـده الهمـم	والدين ضاع وضاع المجـد والكـرم
والجور في النـاس لا تخفـى معالمـه	والعدل من حوله الأسـتار والظلـم

وكل من تابع الشيطان محترم ... وكل من عَبَد الرحمن مهتضم

وليست تلقى بهذا الدهر مؤتمناً ... في نصحه لك إلا وهو متهم

آذانهم لسماع الفحش واعية ... وعن سماع الذي ينجي بها صمم

يشاهدون ضلالات بأعينهم ... وإن تجلى لهم وجه الصواب عموا

الغدر والمكر والأضغان طبعهم ... والزور والغي والبهتان نطقهم

إلى قوله :

فاصدع بأمرك إن الهم منفرج ... على يديك وحبل الجور منصرم

وآية الفتح قد لاحت علامتها ... والناصر الله لا الأجناد والخدم

وقال فاضحاً لأعمالهم البشعة :

القتل والصلب والتحريف قد فعلوا ... والشحن للجلد بعد السلخ أتبانا

كذا الربى والزنا والخمر قد شربوا ... جهراً وباعوه في الأسواق أدنانا (١)

والمرد في حلة النسوان قد شائوا ... عليهمُ من رقيع القز قمصانا

(١) أديانا

إلى قوله :

قاضي الشريعة علج ماله ثقة ... دانٍ على الدنّ لا ينفك سكرانا

يقضي بجهل لمن أرشى ولو كذبوا ... شهوده وادعى زوراً وبهتانا

تالله ما ملّة جاءت بذا أبداً ... ولا حكوه لفرعون وهامانا

* * *

حجة صادقة

بعد أن قامت الحجة على عاتق الإمام ..

قام الإمام بأمر الله تنهضه ... محبة الدين إن الدين مرموق

يدعــو إلى مــادعى آبــاؤه زمنــا إليــه وهــو بعــين الله مرمــوق
ابن النبي نعم وابــن الوصــي نعــم وابن الشهيد نعم .. والقول تحقيــق

فبدأ بإرسال الرسائل إلى العلماء متسمياً بأمير المؤمنين .. فكان من رسائله ((إن الله سبحانه قد دعاكم ورسوله (ﷺ) إلى طاعته والصالحين من أولي الأمر مـن ذريته، حيث يقول الحق وهو يهدي السبيل ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعــوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنــازعتم في شــيء فــردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ ..

ولا شك أن أولي الأمر الذين أمر الله بطاعتهم يجب أن يكونوا عــدولاً وأهــل تقوى لقوله تعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام ﴿ إني جاعلك للناس إماماً قال ومـن ذريتي قال لا ينال عهد الظالمين ﴾ ولقول الرسول (ﷺ) : ((من ولى رجــلاً وهو يعلم غيره أفضل منه فقد خان الله في أرضه)) ، ويجب أن يكون أعلــم الناس بالتنــزيل والتأويل وبما يحتاج إليه الناس مــن تبيــين الحــلال والحــرام والفرائض والسنن والعزائم والرخص لقوله تعالى﴿ أفمن يهدي إلى الحق أحــق أن يتبع أمن لا يهدِّي إلا أن يُهدى فمالكم كيف تحكمون ﴾ ويجب أيضــاً أن يكون من ذرية رسول الله (ﷺ) وعترته لقوله تعالى ﴿ أفمن كان على بينــه من ربه ﴾[يعني محمد(ﷺ)]﴿ويتلوه شاهد منه﴾[يعني قرابته وعترته]، ولقوله (ﷺ) : ((إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبدا كتــاب الله وعترتي أهل بيتي ، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علــيّ الحوض))، ومن وجب التمسك به لأجل أن لايقع في الضلال يجب أن يكــون متبوعاً لا تابعاً يؤيد ذلك قوله (ﷺ) في عترته ((قدموهــم ولا تتقدَّموهــم وتعلموا منهم ولا تعلموهم ولا تخالفوهم فتضلوا)) ، وقولــه (ﷺ) : ((إن

الله جعل علياً لي وزيراً ..)) في حديث طويل إلى أن قال : ((وابناه سيدا شباب أهل الجنة وهو وهما والأئمة من بعدهما من ولدهما حجج الله على خلقه)) ، وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ((من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر من ذريتي فهو خليفة الله في أرضه وخليفة كتابه وخليفة رسوله)).. إلى غير ذلك من رواية المؤالف والمخالف المؤدي إلى العلم الذي لا يمكن دفعه بشك ولا شبهة)).

ثم بين أفعال الترك .. ((وأنا أدعوكم إلى جهاد الظلمة الأشرار العاملين بسيرة كل جبار ينكحون الذكور ويشربون الخمور ويقتلون النفوس التي حرم الله بغير الحق ويظلمون الناس ويقربون أهل الفجور ويعملون بالكذب على الله وعلى رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن روايات الزور .. ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾)).

ثم يؤكد الإمام على وجوب الولاية بحجة قوية ..

((وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : ((ما بال أقوام إذا ذكر عندهم آل إبراهيم (صلى الله عليه وآله وسلم) استبشرت قلوبهم وتهللت وجوههم وإذا ذكر أهل بيتي اشمأزت قلوبهم وكلحت وجوههم ، والذي بعثني بالحق نبياً لو أن رجلاً لقي الله بعمل سبعين نبياً ثم لم يلقه بولاية أولي الأمر من أهل بيتي ما قبل الله منه صرفاً ولا عدلاً)).

وكانت هذه حجة دامغة قوية .. فتلقتها النفوس الأبية بعشق الشهادة .. أرواحهم في أكفهم .. مسارعون إلى هناك .. حيث الإمام ينتظر الإجابة منهم.. لتبدأ رحلة الخلود .

* * *

((رحلة إلى الله))

بين تلك الرواسي الشامخة المنيعة كقلوب المجاهدين .. كان الإمام مع بعض المجـاهـدين ينتظر من راسلهم ليأتوا للبيعة .. بيعة المؤمنين أنفسهم لله .. مقابل الخلد وملـك لا يبلى.

وفي جبل جديد قارة في بلاد الشرف في أول صفر سنة ألف وستة للهجرة كـان الإمام قابعاً على صخرة هناك .. وقد وصل كثير من المجاهدين وبـايعوه مـن صعدة وذمار وحجة وصنعاء وغيرها .. فراح الإمام يعظهم ويذكرهم بـالله .. لترحل تلك الكلمات مائسة إلى قلوبهم دون أن تستأذن بواباً .. فتهتز قلوبهـم خوفاً ورجاءً للمزيد .

وتفقد الإمام فإذا به لا يرى وفد الأهنوم .. فشغل وقته بالذكر والتسبيح .. ومـا هي إلا فترة وإذا بطلائعهم تظهر .. فاستبشر الإمام ونزل من مكانه ينتظرهـم .. وما إن وصلوا حتى جعل يصافحهم .

الإمام : كثرتمونا كثركم الله .

ورجع إلى مكانه .. والفقيه علي قائدهم يخبر الإمام بعظيم المعاصي التي يقترفـها الأتراك .

وجعل الإمام يحدثهم فيستعذبون عباراته ويصغون لها مسامعهم .. فأكثرهم مـا عرف صورته و ما سمع صوته .. وإنما سمعوا عن علمه وحلمه .

ووصل إليهم بدوي فأعطاهم ثلاثة رؤوس من البقر للإمام وأصحابه .. فـأثنى عليه الإمام ودعا له .. ووزعها الإمام بين الجنود ليطبخوها .. فانشغل الفقـهاء عن قسمهم بكلام الإمام القاسم (ع) ..

وما راعهم إلا صوت الإمام يصيح بهم ((القوم .. القوم)).

وأقبلت بيارق الظالمين من جند الأمير عبد الرحيم .. فاجتمع المجاهدون حول إمامهم .. وراح الجميع يقاتل .. وقتل من الفريقين كثير .

وقبل أن تنجلي الغبرة إذا بالفقيه علي يجذبهم واحداً واحداً قائلاً .. اخرجوا فقد خرج الإمام .. فانحدروا إلى أسفل الجبل .. فلحقهم الجند بالحجارة يهيلونها عليهم .. ولكنَّ أحداً منهم لم يصب بأذى .

ودخل في قلوبهم من هذه الهزيمة .. إذ كانوا يعدونها فراراً من الزحف .. ولما وصلوا إلى الإمام استقبلهم بوجهٍ ضاحك ..

قائلاً : هذا أول يوم بيننا وبين الظالمين .

وراح يحقرهم في أعينهم ويصغرهم ..

ثم أردف : لو كان معنا أهبة لأخذناهم عن آخرهم .

فذهب ما في قلوبهم من الهم .. وكان قد انحدر إليهم رأس البقر الثالث فجهزوه لساعته .. وبعد ذلك رأى الإمام أن يتفرقوا لدعوة الناس كلٍّ في بلده .

فراح يخلو بالناس مجموعة تلو أخرى .. يعظهم ويوصيهم ويودعهم ..

وبقي فقهاء الأهنوم .. إذ لم يكونوا قد بايعوه .. فحدثهم حتى أبكاهم جميعاً ..

ثم قال : ((تبايعوني على الموت .. وأن نقاتل من دون صنعاء حتى ندخلها فنغير ما فيها من المنكرات)).

فبايعه الجميع على ذلك .. وقلوبهم تستمد من إيمانه ما يجعلها تفرش مهجها من أجل الله .. وراح الإمام يضعُ لهم قاعدة هامة في الدعوة الفردية والصبر ..

الإمام : كم أنتم حين وصلتم إلينا ؟

أحدهم : خمسة وثلاثون نفراً .

الإمام: تذهبون على اسم الله .. وادخلوا البلاد ليلاً ثم ادعوا .. يدعو الرجـــل مثله فتأتون إنشاء الله حيث نطلبكم سبعون رجلاً .

ثم ارتحلوا إلى بلداهم جميعاً .. فأتى إليه رجل يطلبه موضوعاً ..

فالتف الإمام إلى العلامة (أحمد الشرفي)..

الإمام : اكتب له ما نقول.

أحمد : هذه الساعة.. ماهي ساعة كتابة ؟.

وكان الأمر السابق قد آلم صدروهم .. فعرف الإمام ..فقال بقوة إيمانية..

الإمام : كأنك قد ضقت ذرعاً مما جرى .. والله لأقلبنها عليهم ومن والاهم مـن المشرق ولأذيقنهم كأس المنايا .

وودع الإمام بقية العلماء بعد أن أرسل من أرسل إلى صعدة وإلى صنعـــاء وإلى ذمار وإلى حجة .. ثم ارسل القائد أحمد عواض الأسدي إلى الظاهر وما حولهـــا .. وفي العصيمات الحسن بن الناصر .

* * *

ارتحل الإمام إلى جهة المشرق .. ورجعت القبائل إلى بلداهم .. كل منهم يدعـوا من استطاع .. ولم يدع لهم الأتراك مجالاً .. فاستتر المجاهدون لا يعرفون النـهار .. بل يخرجون تحت ستار الظلمه يعلمون الناس ويوعوهم .

وراح الترك يقسمون الأموال بسخاء .. يتألفون بها قلوب الضعفاء فمن أحـب المال أبغض الجهاد ..

وطيلة شهر والناس يدعون لنصرة الدين .. وخبر الإمام عنهم غـــائب ..كمـن ابتلعته الأرض لا يدرون من سريته ماذا يعمل .

* * *

قوافل الشهداء

رجع الإمام من بلاد المشرق .. ولما وصل تالقة .. أرسل إلى بعض المبايعين من الأهنوم وما جاورها بأن يلاقوه هناك .. فارتحل إليه مجموعة من المجاهدين بلغوا أكثر من ستمائة مجاهد..

وأقبل في تلك اللحظات مبايعون من عذر والعصيمات .. وأقيمت صلاة الجمعة .. ولما أكملوا أمر الإمام الناس بالتقدم لجهاد الترك في محطة قرن الوعر .

ودخلوا المحطة يقودهم الإمام القاسم (ع) .. وقاتلوا بلهفة الشهيد .. وانتصروا.. وهرب الأتراك وتحصنوا بالقفلة .. وصاح الإمام بأصحابه أن لا يحرقوا السوق وما فيه من عشش المحطة .. مخافة الأتراك أن يرموهم من القفلة على ضوء النار .. ولكن بعضهم خالف .. فاستشهد على إثر الإطلاق إثنا عشر رجلاً .. فأخرجوهم وصلي عليهم بعد صلاة العشاء ..

وطلع الإمام إلى قرية الحضرات .. وقد فرغها أهلها لهم وكان عشائهم سنبلتين لكل واحدٍ منهم .. وبات الجميع يترقبون الغد القريب ليكملوا بقية القتال .. ولكن الإمام أرادها حرب عصابات دائمة .. فاستدعاهم ووعظهم عن الجهاد وفضله .

الإمام : التدبير أن تتفرقوا وكل واحد يدعوا من أمكنه وقدر عليه من أهل الخير والعزائم والصبر .

ووزع على الجميع كتباً إلى قبائلهم ..

ثم أردف للعلماء : تحفظوا أنفسكم بالإختفاء حتى يأتيكم إنشاء الله أمري .

وغادرت كل كوكبة إلى بلادها .

وارتحل الإمام إلى برط .. وحلّ بها ضيفاً عزيزاً ثم إماماً منظماً ..

وبدأ الإمام دعوته هناك .. فأجابه إلى دعوته أمم كثيرون ممن يتطلعون إلى جنان الخلد ..

وعلم به الباشا أحد ولاة الترك في صعدة .. فأرسل إلى شيخ بـــرط ((عُبيــد البرطي)) مالاً عظيماً مقابل أن يسلم إليه الإمام ..

ولما وصل إليه المال .. تراقصت على شفتيه إبتسامة ساخرة .. ((أيريد أن يسلم ابن رسول الله)) فأخذ المال وذهب به إلى الإمام .. وأخبره الخبر .. فأثنى عليه الإمام .

وبعد أن رأى شيئاً من الجفوة ارتحل إلى بلاد وادعة .. ينتظر خروج المجاهدين .. وبينما هو يسير متخفياً لا يكادُ يعرف .. إذا بيهودي يهتم إليه قاصداً إياه .. فسأله الإمام مستنكراً .. ماذا يريد؟..

اليهودي : يامولانا .. هذه الدراهم استعن بها على جهاد أعدائك فإني أحب أن لا يطلع عليها أُحد من المسلمين ولا من الذميين .

فسأله الإمام عن الحامل له ؟.

اليهودي: هذا الجهاد الذي أنت فيه يرضاه أهل الأرض كما يرضاه أهل السماء.

* * *

كان دعاة الإمام في كل مكان قد أعدوا العدة لجهاد الأعداء .. وإنما ينتظـرون استقرار الإمام .. ولما علم القائد أحمد بن عواض الذي كان في الظاهر برجـوع الإمام إلى بلاد الشرف انطلق إليه بمن تجمع إليه من المجاهدين .

ولما كان في الطريق اعترضتهم محطة للترك في أخرف.. وقد كـان والي الـترك هناك ((مطهر الشويع)) وهو مأمور أن يرتحل إلى الأهنوم.. وحـالت بينـهم

وبين الوصول إليه .. فاجتمع القائد بمن قد بايع من بكيل وحاشد وأهل غربـان وكانوا قرابة ألف مجاهد ..

فقرر الجميع مقاتلتهم..

ووقعت بينهم معركة كبيرة استمرت يومين .. وهرب أمير الترك وأسر بعضهم وقتل كثير منهم .. ورجع المجاهدون فرحين بنصر الله .. ينصر مــن يشـاء .. واتفق رأيهم على أن يتفرقوا بعد هذه الوقعة .. حتى لا يُـهاجموا مجتمعين .. وأرسلوا برسول إلى الإمام .. وكان في حرف الصلله في الرونه .

فلما وصل استبشر به .. ولم تمض أيام إلا والقائد أحمد بين يدي الإمـام مـع إخوانه المجاهدين .

* * *

ومن بين رسل الإمام رسول طوى بُعد السفر يحتسب عند الله الثواب في كـل ذرة غبار تناله أو وعكة تنـزل به .. حتى وصل إلى الحيمة يريد الفقيه الـورع (يوسف بن علي الحماطي) .. وكان قد انتظر سنوات طوال يـترقب القـادم ليحمل إلى الله روحه راضياً .. ولما وصل إليه الرسول أعطاه الرسـالة .. فلمـا قرأها أخفى رأسه بين يديه ..خوفاً من عظم المسئولية .

الرسول : قم يا فقيه يوسف بعصاك .. قاتل العرب والعجم وإلا دخلت النار .

فقام وصلى الظهر والعصر .. ثم خرج بعدَّته واستنفر الناس .. وقد كانوا يحبونـه حباً جماً لعلمه وورعه .. حتى قال بعض العلماء : خفنا أن يغالي فيه بعضهم مـن فرط حبهم له .

فاجتمع له في أقل من ساعة ما يقرب من ستمائة رجل ..

وبيده الشريفة رفع الراية قائلا: لا تحتقروا هذه العمل (أي أنهم سيظهرون بإذن الله).

وانطلق الجميع وقد دخل الليل فأقاموا ليلتهم .. وفي الصبح تقدموا .. وما إن بزغت الشمس حتى سمعوا البشارة بوصول عمّ الإمام عامر بن علي .. فقد كان في حبس كوكبان من مدة .. وصل إليهم بثياب رثّة بالية أبلاها سجن الظالمين .. ففوض إليه يوسف الأمر في تدبير الأمور .

• فواصلوا حتى شارفوا بلاد الحدب .. وكان الترك قد سيطروا على مدخلها .. فانتظروا إلى الصباح ثم أردوا الطلوع .. فلقيهم جند الترك فتناوشوا ثم هزمهم القائد عامر .. ولما وصلوا إلى القرية وقعت حرب شديدة قتل فيها كثير من الترك .. وانهزموا من المحارم إلى مغربة العر .. وحميت الحرب هناك .. ولم يكن مع جند القائد إلا ثمانية عشر بندقاً . .ونفذت بعض الذخيرة ..

فصاح أحدهم : إن القائد يقول ليس وقت القتال الآن ..

فتوقف القتال إلى أن وصلت لهم غارة من بني مهلل ..

فصاح أحدهم : ساعتكم .

فحمل الناس من جميع الجهات حتى التقت الرؤوس وتصادمت .. وانهزم الأتراك .. ودخل المجاهدون إلى المحطة وغنموا ما فيها من السلاح .. وقتل من الترك ما يزيد على ثلاثمائة رجل .. وغنموا ما يقرب من ستمائة بندق .. فأخذها القائد وفرقها بين القبائل ..

ولما استقر بهم المقام جهز يوسف القائد محمد العياني مع بعض الرجال من حراز ليغزوا محطة للترك كانت في مفحق – منطقة في الحجرة – وكان فيها من الترك ما يربوا على أربع مائة رجل .. وارتحل محمد مع من معه لقتال الترك هناك .

* * *

كان الحسن بن ناصر الغرباني داعية للإمام في العصيمات ونواحيها .. ولما علموا بارتحال الإمام اجتمع مع الهادي الغرباني والشيخ علي بن وهان ومن انضم إليهم من العصيمات وغيرها ودخلوا وادعة .. وكان يقطنها الترك بجيوش تقرب من خمسة عشر ألف جندي ..

وما إن دخلوا حتى حدثت مناوشات بين الطرفين شديدة .. ولم تمض فترة وإذا بمحمد بن صلاح في عسكر أتوا من قبل الإمام لمناصرتهم .. فارتفعت معنويالهم وقاتلوا بحماس كبير .

وأصيب الأمير الحسن في رجله بطلقة بندق .. فشُلّت رجله .. واستشهد أخوه الهادي وعلي بن المهدي ..

وأرسل الإمام قائدهُ الفذ أحمد بن عواض بغارة أخرى .. فرجحت كفة المجاهدين .. وأراد الإمام أن يصل إلى المجاهدين في وادعة .. ولكن كثرة محاط الترك وانتشارهم حال دون ذلك .. فاستتر حتى جن الليل .. وتسربلوا به ودخلوا حدود وادعة ينتظرون المصير ..

* * *

في الأهنوم كان ابن المعافا قد مد سيطرته .. وجثم بعسكره على تلك البلاد الطيبة .. ولكن لم تكن الطيبة لتمنع الناس من جهاد الظالمين .. فقد قام القائد علي ومن معه بالدعوة لكل من يأملون منه الصلاح ..

ولم يطل بهم المقام فبعد أن ظهر أمر الإمام اتفق رأيهم على أن يشعلوا النيران ويهبوا بأجمعهم على ابن المعافا ومن معه في الأهنوم .

وحدثت معركة انجلت بهزيمة الترك وأعوانهم وانظمت قبائل الأهنوم للجهاد .. فأرسلوا القائد علي هادي العنسي ليستقدم الإمام إلى الأهنوم ..

فارتحل إلى وادعة .. حيث كانت الأمور قد تبدلت ودخل في الليل .. ومـا إن وصل .. علم أن الإمام قد دخل حدودها .. يريد جهادهم .. وإذا بالبشرى بأن وادعة كلها قد انضمت إلى المجاهدين ..

فلما يتمالك الرجل نفسه حتى صاح : البشارة يا أمير المؤمنين .. هؤلاء قبـائل الأهنوم وعذر يواثقوا رهائن لبعضهم بعضاً وأجابوا كلمة الحق وأوقدوا النـار واجتمعوا للجهاد وطردوا من بقي في بلادهم من أصحاب المعافا وطلبوا المبـادرة بوصلوك إلى بلادهم لئلا ينتقض عليهم ما عقدوا .

فنـزل الإمام وأمر أحمد بن عواض ومحمد عشيش وأحمد بن محمد الأعضـب وعلي بن وهان بملازمة الجهاد في وادعة .

وارتحل هو إلى الأهنوم .. وفي المحراب كان في استقباله أكثر من ألفي رجل مـن العلماء والفضلاء .. وفي الهجر كان لا يزال لابن المعافا محطة فوثب الإمام عليهم وأسر بعضهم ..وواصل تقدمه إلى الأهنوم .

* * *

دونها ثجُّ النحور

أكمل محمد العياني مهمته .. وانطلق عائداً بالغنائم والأسلحة التي كانت تعينـهم كثيراً لندرتها لديهم .. وكان به شيء من السهو .. فرجـع إلى بيتـه دون أن يستأذن القائد .. فأرسل إليه القائد يوسف برسالة شـديدة اللهجـة عطوفـة الملامح.

يـا خليلـي ويـا شـقيق فـؤادي أنـت خلفتنـا لأمـر شـديد

فرجع إلى ساحة الجهاد لوقته .. معتذراً إلى الله ..

وراح يوسف يجهز الفقيه علي بن يحيى الحيرسي ليرحل إلى بلاد كوكبان – جبل النيس ونواحية – فلما وصل استقبلتهم القبائل ودخلوا معـــهم في الجـهاد .. فأرسله والي الترك أحمد إليه ابن عمه في نحو ستمائة نفـــر لقتالــه .. فقاتلــهم الحيرسي قتالاً شديداً وأسر قائدهم وقتل كثيراً منهم .. وأرسل إلى القائد عـامر بن علي ..

وواصل تقدمه .. فأخذ الطويلة ثم بلاد الضلع كلها .. ورجعوا إلى المـأخذ .. وبعد أن حُبس ابن عم أحمد شمس الدين والي الترك ثارت ثائرتـــه .. فأرسـل الحملة تلو الأخرى وهم يقاومون في استماته .

وأسر الأتراك أخاه عبد الواحد .. وجعلوا يساومونه به كي ينضم إليهم ويفـرج عن صاحبهم ..ولكن بائت المحاولات بالفشل .. فقتلوه غيضاً داخل السجن .

وما درى أن أخاه في إثره .. فما هي إلا أيام نفذت ذخيرتهم خلالها .. وأصيـب هو بجروح عديدة .. وفي جرف أعلى بني الخياط كانت روحـه تسـافر عـبر الفضاء لتلتقي بشقيق في ظل الجنان .. وطيب الريحان .. واحتزوا رأسه .

* * *

ارتحل أهل وادعة مع بعض القواد مثل أحمد الأعظب إلى هزم بعد أن استدعاهم أهلها.. وراح الجميع يتشوق إلى المستقبل بقلب الرضى والطمأنينة .

فالأنوار الإلهية هي التي قادت الحيارى إليـــها .. وبقـي الجميـع يتدارسـون أوضاعهم.. وما راعهم إلا خروج سنان باشا بمدافع ضخمة معه جمع من العـرب والعجم .. قد ألبسهم الثياب الحمراء حتى الإبل والكلاب .. فكـأنهم جـذوة واحدة من النار .

ووقع الجميع في حرب عظيمة ثبت فيها من يريد السعادة الأبدية من المؤمنين .

وأحاط بهم العدو من ثلاث جهات .. وانهزم بعضهم إلى البيوت مما حدا الأمـــر ببعض كبار جند الترك أن يتكلم في الإمام .. يشير مستهزءاً إلى فرجه .. فما أتم كلامه حتى أصابته طلقة أخذت مذاكيره .

وفي تلك الأثناء كان أحمد بن عواض قد دخل لهم فاجتمع له ما يزيد عن ثمانمائة مجاهد .. فلما سمع بالخبر انحدر بمن معه ناحية هزم لينصروهم ويغيثوهم .. وراح يقاتل بمن معه حتى أوقعوا في العجم قتلاً وفرقوهم في البداية ..ثم اجتمع أمرهـــم قرب مدفعهم واستمر القتال طويلاً ..

ولما أنهكهم حملوا على المدفع حملة واحدة واستولوا عليه بعد أن التحق بركـــب الشهداء كثير من المجاهدين .

وفي المعركة كان محمد بن عبد الله الزيادي من المجاهدين .. وكان أخوه أســـيراً عند سنان .. فكان يخرجه أثناء المعركة ينادي على محمد بأن يكف عن القتـــال ويلتحق به ليطلق أخاه .. وتجلت الإنتصارات الإيمانية العجيبة علـــى العاطفة المتجردة ..

فقال لهم محمد بثبات يُلبس العز شموخا : افعلوا ما بدا لكم فقد صارت البـــلاد للإمام أيده الله و لم يبق لي فيها تصرف.

وأخذ أخوه وذبح أمام عينيه كما يذبح الخروف ...

وسالت دماءه في الأرض .. وسالت دموع أخيه .. جرى على مقلتيه ..

((إلى الله أتقرب بهذا القربان .. عسى أن تقبلني إليكم كما قبلته ..))

* * *

استقر الإمام في الأهنوم ،ولم يستقر به الأمر حتى راح يرتب للجهاد .. فبعث عبد الله الحيداني وحسن النساري مع بعض الجنود إلى بلاد الشرف .. فارتحل القائدان والإمام يدعو لهم بالثبات ..

وما إن وصلوا حتى أجاهم أهل حجور وعاهم وطاعن ..

وكان الأمير عبد الرحيم يدرك تحركاتهما فراح يرسل الكتائب لقتالهما .. واشتدت ضراوته .. فأرسل إليه الإمام القائد أمير الدين بن عبد الله لمقاتلته .. فحاصره في بلاد حجة مدة طويلة راحت بعدها خصونه تتهاوى الواحد تلو الآخر .. ففزع إلى الترك .. لينجدوه .. ولكنهم كانوا في ضائقة من قواد الإمام الآخرين .. فاحتال عندها بموالاة الإمام .. وأظهر الندم والتوبة .. وذهب إلى الإمام في خمسمائة نفر ..

ووصل إليه فأكرمه وأخذ عليه العهد والبيعة ..

وأمره بالتقدم إلى جبل عيال يزيد لمناصرة أحمد عواض ومن معه .. ولكن القلوب تظل كما هي إذا لم يطهرها الصدق من جذورها ..

وما إن توجه عبد الرحيم إلى هناك وإذا بالنزعة الشيطانية تأكل قلبه .. فندم على ذهابه إلى الإمام .. ولما قرب من الجبل أرسل سراً إلى سنان أن ينسحب من عمران حتى يوافيه بمن معه من أصحاب الإمام فيغيزون عليهم ويقتلوهم .. ولكن بعض أصحاب الإمام عرف مكيدته .. فأشار على بقية أصحابه بأن يتأخروا ومضى لوحده مع جنده .. بعد أن قبض على بعض أصحاب الإمام .. والتحق أصحاب الإمام بالقائد أحمد عواض ..

وقام عبد الرحيم وسنان بعد التقاءهم بقتالهم بشراشة حتى قتل مـــن الأطفـــال والمجاهدين قرابة ثلاثمائة شهيد .. وانهزم المجاهدون .. وتراجعوا مـــن هـــزم .. وأجمعوا على أن يتفرقوا عسى أن يجتمعوا مرة أخرى .. تحت ظلال المدافع ..

* * *

بعد أن بلغ القائد عامر ويوسف خبر استشهاد محمد العياني توجها إليه وجـــهزاه وصلوا عليه .. وإذا بالباشا يغير عليهم بجند من صنعاء .. فوقعت بينهم معركـــة استشهد من أهل الحيمة كثير ..

وما إن انجلت عنهم الغارة الأولى حتى كانت هجمة أخـــرى بقيـــادة إبراهيـــم الطويل في عدد كثير ..

فجمع القائد عامر المعاهدين في ريمة بني السياغ .. وقام بتنظيمـــهم .. ثم طلـــع بجيشه لقتال إبراهيم .. واحتربوا إلى الليل .. وكان إبراهيم ضخم الجثة .. حـــتى أنه أخذ رجلاً من الحيمة بشعر رأسه ورفعه إلى فرسه .. فقطع الرجـــل شـــعره ونجى من قبضته .. واجتمع المجاهدون عليه وتعاورته أسلحتهم فقتلـــوه .. ولمـــا رأى الترك ما حل بقائدهم تلفّعوا بالسلامة .. وأرادوا الهروب فاحتوشتهم خيـــل المسلمين .. فلم يطلقوهم إلا بفدية .. وبات المجاهدون بين راكع وساجد شـــكراً لله ..

وفي الصباح واصل القائد مسيرته إلى جبل بيت خولان .. ولكن عين الشر مـــا كانت لتنام وقد لحقها الهوان .. فقد اجتمع لسنان باشا أمراء كثيرون وزحفـــوا يحاصرون المجاهدين في الجبل .. فاقتتلوا واستشهد منهم كثير .. وانتهب الجبـــل .. فانحدر بهم القائد عامر من جهة مغربة المحدين .

ولم ينقطع مدد الأتراك .. فقد وصل مدد من كوكبان يناصرونهم .. فدخلوا من طريق جعلل .. فقتلوا النساء والأطفال والشيوخ دون شفقة أو رحمة لكونهم عزلاً .. وذبح سنان جميع من كان اعتقلهم حتى أن طفلة صغيرة صرخت واستجارت بأهل كوكبان . .فأمر سنان بسلخ جلدها .. وببشاعة الدنيا كلها نفذوا أوامره .

ورجع القائد عامر بعد هذه الهزيمة إلى العُر وعزيمته أصلب من الصلد مؤمنا بقوله تعالى ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ .

* * *

وارتحل خبر الهزيمة إلى مبعث الأنوار الإيمانية .. فلما وصلت إلى القاسم لم يجزع لذلك .. وإنما استرجع وحمد الله .. وأراد أن يقيم حقاً في مكان آخر .. ففكر ملياً ثم استنفر المجاهدين بالتجهز للإغارة على ثلا ..

وتوجهت القبائل إليه في حضور زرافات ووحدانا .. فوصل صالح القاسمي في عسكر من بني حبيش وقطيل وعبد الرحيم القدمي في عسكر كثير .. وأحمد الأعضب الحوثي واجتمعوا في حضور .. وزحف الجيش إلى ثلا يحدوهم الأمل في الله .. وكان في مقدمتهم أحمد الأعضب بعسكره .

وقبل الخروج من حضور كان الأتراك على أبوابها فقاتلوهم .. فاستشهد من عسكره ثلاثون إذ لم يكن معهم خيل .

ودخل الأتراك إلى حضور .. ونهبوا ما فيها حتى أخذوا من أخشابها وأبوابها .. وانحاز الحسن بن شرف الدين بجماعة من أصحاب كحلان يقاتل بهم .. واستبسل أصحاب الإمام .. وواصلت المعركة سيرها .. ونفد البارود .. فإذا

بهم يشكون إلى الإمام فتحيّر.. إذ ليس الوقت لصناعته .. وإذا بأحدهم يلوح بيده .. فقد وجد كيساً مليئاً بالبارود بين صخرتين هناك .

فاستبشر أصحاب الإمام وواصلوا القتال مليئة قلوبهم بالإيمان ..

ولاحت تباشير النصر في انهزامات بعض الترك .. وتراجع الجيش اكثر .. والمجاهدون طيلة يومين يلحقوهم الهزائم ..

وفي الخفاء ..كانت عين تراقب الأمور .. إنه أحمد بن محمد شمس الدين (صاحب كوكبان) .. فقد أراد أن يأتي من خلف حضور ويغير على الإمام وأصحابه ..

ولكن شمس الغدر آفلة .. فما إن وصل أحمد مغربة الحمام حتى زامن وصل غارة من مسور بقيادة علي بن محمد سحلة يريدون نصرة الإمام .. فوقعت بينهما معركة انتصر فيها علي بن محمد بعد أن أصيب في رجله ..كانت سبب استشهاده.

وهرب ابن شمس الدين خاسئاً ..

وواصل الإمام قتاله .. وإذا بأحد الجند يخبر الإمام عن قافلة تخرج من مسور لتصل إلى الباشا حسن في صنعاء .. فأرسل كتيبة من الجنود فأغاروا عليها وأخذوها .

فلما علم الوزير بذلك جن جنونه .. وأغار على مشائخ خولان وحبس بعضهم .. وقتل بعضهم قتلة تنم عن وحشية وشراهة عجيبة للتعذيب والدماء ..

فقد قيد بعضهم وجعلوا بعذبونه بخشب حاد يدخلونها من أسفله حتى يخرجوها من فيه .. ويتركوها بداخله يتعذب بالآلام حتى يقضي نحبه.

وصبروا .. يتطلعون إلى الآفاق السماوية .. عسى بها يحلون فتهدأ بذلك نفوسهم الهدوء الأبدي الخالد .

* * *

بعد أن واجه القائد عامر ويوسف مُر الهزيمة بصبر الإيمان .. اتفق مع يوسف أن يبقى في السر .. ويخرج يوسف إلى آنس فخرج ذلك الطود برجال قليلة .. وما إن دخل آنس حتى اجتمع له خلق كثير لما يعرفون من فضله ومكانته .. وكتب إلى كثير من النواحي وأقبل عليه الفقهاء .. وأحبه الناس حباً شديداً كادت تطيش عقول بعضهم من فرط حبه .. فأقام الحدود والشرائع .. وارتحل حتى وصل إلى بكيل فأتى إليه مشائخ الحدا ثم دخل إلى ذمار .. وكان إبراهيم درة والياً من قبل الترك في ذمار .. فأحصر في قلعته حتى فتحها القائد وأخذ من فيها .. وأتت إليه المشائخ من ذمار .

ولما استقر به المقام فيها أرسل علي بن صلاح الحضراني إلى مدينة رداع ونواحي خبان .. فانتصر فيها وأسر الأتراك هناك ..

ومضت الأحوال على خير ما عدا أمور كانت تنغص عيش أهل ذمار .. فقد دخل أهل الحدا وتعدوا عليهم .. فمنعهم القائد يوسف .. فما امتنعوا .. فاجتمع أهل ذمار وقاتلوهم قتالاً شديداً حتى أخرجوهم من ذمار بعد أن قتلوا منهم عدداً كبيراً.

ومضى الأمر شديداً على قلب القائد وقد كان يضمر في نفسه أن يرسل مجموعة تحفظ طريق صنعاء إلى ذمار .. إلا أن الحادث شغله عن ذلك ..

ومن جهة أخرى ما كان الترك بالذي يشغلون عنه .. فقد أرسلوا رجلاً يلقب بالواعظ في خيل ورجل كثيرة .. وقد كان هذا الرجل لا يخرج من الجامع

الكبير بصنعاء .. ومن شدة عبادته سمي الواعظ .. ولكنه لم يترجم العبادة إلى اعتقاد ومعاملة .. لذا كان سهل الإنحراف .. فقد استماله الباشا بالمال حتى انعتق من دينه وصار واحداً منهم .

ولما وصل لقتال يوسف ناوشه قليلاً عند حدود المدينة ثم تراجع خارج المدينة على سبيل الإنهزام .. فقرروا لقاءه في قرية يفاغ (غربي ذمار) .. وتلاقوا في تلك القرية فتسلل الترك حتى أحاطوا بالمجاهدين وقتلوا منهم كثيرين .. ووصل بهم الأمر أشده.

فلما رأى القائد أن الترك سيفنون جميع المجاهدين لأنهم قد أحيط بهم من كل مكان .. فقام القائد العظيم بمصالحة الواعظ بأن يأسره على أن يترك جميع المجاهدين .

فاشتد فرحهم وقاموا بتقييده وتركوا الباقين .. فهو الذي أقض مضاجعهم وأسهر لياليهم .. وحملوه إلى السجن في صنعاء .. وكان ولده معه في ذمار .. فمرض .. وحملوه إلى آنس وظلوا يحرسونها شهراً خوفاً من الإغارة ..

وبعد ذلك ارتحل إلى الإمام القاسم فجعله والياً هناك ..

وبعد هذه الحادثة التي جرحت صدر الإمام كان علي الحضراني الذي أرسله القائد يوسف يخرج من رداع وقد رفضه مشائخ القبائل هناك .

وأما العابد محمد العياني (آخر) فقد كان ذهب إلى يريم فاحتال عليه الشيخ السرحي حتى أدخله صنعاء وقتله هناك .

ورمي القائد الكبير يوسف في السجن بجسمه الهزيل الذي كان يستطيع حمله الرجل العادي دون تعب يوجد .

وكان يرسل بعض رسائل التشجيع للمجاهدين حتى نال بغيته التي تمناها لسنوات .. فقد استشهد مسموماً مسجوناً لترحل روحه في أعلى الدرجات ..
وبلغ الإمام خبر الجميع .. فاستعبر .. وأطلق العنان لدموعه لتسيل على خديه ..
وفي أبيات عبر عن ألمه ..

وعليّ الحبر الشهيد ويوسف فخر الأواخر شأنه كالبوح
ومن العيانة عابد متبتل ومن المحيرس باذل لنصوح

* * *

اجتمع أمراء الترك في قاع البون يريدون الإغارة على مناطق حجة وبلاد الطرف ونواحيها .. وكادت بعض المناطق تسقط في أيديهم لولا صلابة الأهالي والمجاهدين .. فقاموا بحربهم حتى ردوهم عن مرادهم .. وكان المجاهد أحمد عواض في مناطق حاشد وبكيل .. ثم أتم مُهمته بعد أن دخل الجميع تحت لواء الجهاد والولاء ..
وانطلق بعد أن خمدت جذوة الفتن هناك ..وتوجه إلى خولان وهم .. وكلهم يدين له بالولاء .. فقام بشن الغارات من هناك على صنعاء .. حتى أقلق الوزير حسن داخل قصره .. فقد كان الرمي يصل إلى القصر ..
وأشرف المجاهد أحمد من فوق جبل نقم .. ووصل إليه مدد من همّ بقيادة الشيخ شرها الصيّادي ..
وغزا حدَّة .. وهزم من فيها دون أن تبدر من الترك أي نجدة لمن فيها .. واستولى عليها.. وكانت ضربة في نحورهم حيث أنها من أقرب المناطق لعاصمة الأتراك .

وجهد العاجز لسانه .. فقد كانوا في تلك الليالي يتسامرون وينـــادون أراذلهـم بأسماء أصحاب الإمام .. وإذا وصلوا إلى المجاهد أحمد ينادون الكلاب باسمـــه .. ولكن ما تضر الطّود نسمة نتنة هائمة ؟.

مـــازال يقصدهـــم إلى مخيمـــــهم وهم كشاة رأت في القاع ســـرحانا

فـــالله يكـــلأه مـــن كـــل نائبـــة فـــذاك اشـــترنا وأبـــو ســـرايانا

وغزا همدان وما إليها حتى وصل إلى باب اليمن .. وكاد أن يرد القصر لـــولا أن دافع عنه حراس خزينة الباشا .. فتراجع المجاهدون يستعدون لغيرها .

* * *

استطاع الإمام بعد مدة من حصار ثلا أن ينفذ إليها بجيشه .. ودخلـــت إليـــهم الذخيرة ودحر من كان يريد غدرهم وأرسل الإمام القائد الحسن بـــن شـــرف الدين إلى الحصن لإفتتاحه .. وكان فيه والٍ للترك يسمى علياً .. وقـــد كـــان كأقرانه جباراً لا يألوا جهداً في سفك دم أي بريء .. ولما أسَـــرَ الفقيـــه عبـــد الهادي الحسوسة فقلق أهل المنطقة أن يجري عليه سنته في سفك الدماء ..

ولما وصل القائد الحسن .. علم بحبس الفقيه ..

فشرع في كتابة كتاب للوالي يحذره من أن يمسه بضر .. ولم ينتبه إلا وقد طلـــع من المدينة أمة من الناس فاجتمعوا عند باب الحصن السفلي وكسروه وتقدمـــوا إلى الثاني وكسروه .. ولما انتهوا إلى الباب الثالث تعصّى عليهم .. فقـــد كـــان مدعّماً بالحديد . وانهالت الحجارة عليهم من فوق الحصن .. فجـــرح بعضـــهم وثار من حولهم الغبار .. وكادت أرواحهم أن تزهق من شدة الزحام .. وطلعت مجموعة من ظهر الحصن .. والهاوية تتراءى لهم من بعيد ولو هـــوى بعضـــهم لأصبح عسيراً أن تلملم بقاياه .. وفتح الباب الثالث ودخل الجميع إلى البـــاب

الأخير .. وارتاعت قلوب الترك .. فأخرجوا الفقيه ليصيح عليهم أنه بخـــير .. ولكن كان من العسير أن يسمعه أحد .. ووصل في تلك اللحظة الذين أتوا مـــن ظهر الحصن إلى سطحه .. فوصل خبرهم إلى القائد .. فانطلق كالمجنون ليفعـــل شيئاً .. ولما وصل قاعة الحصن اكتنفته أحضان المجاهدين وراحوا يقبضون علـــى من في الحصن وحملوا ما فيه من البنادق ومونتها .

ومن أسفل الحصن ارتفعت إلى الآفاق تكبيرات الجرحى لتعلن للعـــالم أن هـــذه طُريق الآلام والآمال .

* * *

استقر القائد عامر في العّرة وتنقل في بعض النواحي المجاورة .. ولما حاول أهـــل جبل تيس أن يتمردوا من طاعته وإذا بغارة تصل إليه من فواضل القائد يوسف (رحمه الله)، فقام بإعادة الأمور إلى نصابها ثم رجع إلى آنس فتوجهت إليه بعـــض الكتائب من الترك .

فلما وصل خبره إلى الإمام القاسم رأى أن يتوجه بنفسه إلى السودة لكي يشـــغل الأتراك بهمٍّ وذلة .. ولما وصل إلى حصن السودة والاه القريب والبعيد واســـتقر هناك يبث تعاليمه ويبعث سراياه هنا وهناك .

ومن تواضعه لم يكن الشيخ أقرب إليه من البدوي .. بل في ميزان التواضـــع لا فضل .. ومن هنا استغل الأعداء الإمام .. فقد أرسل إليه ناصر البهيلة صـــاحب حصن حقل ..

بأن : يا إمام تعال إلينا لكي نسلم إليك الحصن بنفسك .

الأخير .. وارتاعت قلوب الترك .. فأخرجوا الفقيه ليصيح عليهم أنه بخـــير .. ولكن كان من العسير أن يسمعه أحد .. ووصل في تلك اللحظة الذين أتوا مـــن ظهر الحصن إلى سطحه .. فوصل خبرهم إلى القائد .. فانطلق كالمجنون ليفعـــل شيئاً .. ولما وصل قاعة الحصن اكتنفته أحضان المجاهدين وراحوا يقبضون علـــى من في الحصن وحملوا ما فيه من البنادق ومونتها .

ومن أسفل الحصن ارتفعت إلى الآفاق تكبيرات الجرحى لتعلن للعـــالم أن هـــذه طُريق الآلام والآمال .

* * *

استقر القائد عامر في العُرّة وتنقل في بعض النواحي المجاورة .. ولما حاول أهـــل جبل تيس أن يتمردوا من طاعته وإذا بغارة تصل إليه من فواضل القائد يوسف (رحمه الله)، فقام بإعادة الأمور إلى نصابها ثم رجع إلى آنس فتوجهت إليه بعـــض الكتائب من الترك .

فلما وصل خبره إلى الإمام القاسم رأى أن يتوجه بنفسه إلى السودة لكي يشـــغل الأتراك بهمٍّ وذلة .. ولما وصل إلى حصن السودة والاه القريب والبعيد واســـتقر هناك يبث تعاليمه ويبعث سراياه هنا وهناك .

ومن تواضعه لم يكن الشيخ أقرب إليه من البدوي .. بل في ميزان التواضـــع لا فضل .. ومن هنا استغل الأعداء الإمام .. فقد أرسل إليه ناصر البهيلة صـــاحب حصن حقل ..

بأن : يا إمام تعال إلينا لكي نسلم إليك الحصن بنفسك .

فتقدم الإمام إليه قائده التوكل على الله .. وما كاد يصل إلى الحصن حتى رماه ناصر من الحصن بثلاثة بنادق مرة واحدة .. ولكن رعاية الله ماهي منه ببعيد .. فلم يصبه منها شيء .. فرجع لساعته إلى السودة مع أصحابه ..

وضل فيها مدة ليست بالقصيرة احترقت قلوب الأتراك ..

فقال سنان مقالة لقيت رواجاً كبير : إن الإمام قد بَدُنْ – صار سميناً – في السودة.

فلما علم الإمام بذلك وكان مشهوراً بخفته وقوته العظيمة صلى الجمعة ثم انطلق مسرعاً على هيئة السباق .. فلم يستطع أحدٌ اللحاق به حتى علا مرتفعاً .

ورجع إلى السودة واستدعى القائد أحمد بن عواض .. ولما وصل إليه انطلقا إلى مراتب الترك في قضوى في كحلان .. فأخذهم أسرى بعد أن أوجع فيهم قتلاً .. وارتحل إلى مدع ووقعت فيها حرب استشهد فيها علي بن عواض .. وأرسل إلى الحصن العلامة الحسن بن شرف الدين والأورع الأكمل أحمد المحرابي .. وقد جثم قرب الحصن كثير من الترك .. يخوفون الصغار والشيوخ ..

ورسما خطة للقتال.. وكان مسراة بالليل .. وخاضوا المعركة تحت جنح الظلمة .. ومع انبلاج الصبح أشرقت تباشير النصر .

وقتل جميع أمراء الترك في الحصن ..واستشهد ما يقرب من اثني عشر مجاهداً .. وولى الإمام في تلك المنطقة القائد أحمد المحرابي .

وفي استقراره إجتمع إليه كثير من العلماء داخلها الكثير من ذوي المسائل الجليلة .. ودخل عليه العلامة محمد بن عبد الله شرف الدين تائباً نادماً مبايعاً لما يعرف من فضل الإمام عند الله .. وإن كان حب المال والدنيا قد أطاح بمبادئ كثيرين منهم .. من أي الأنساب كان .. فما ذلك بعاصم له .. إلا الإيمان .

ومن السودة ضربت النقود المنصورية وكانت نصف درهم .

ووصل أحد المجاهدين إلى الإمام .. فلما دخل إليه أخبره عن وجود بعض التلاقل في أسناف .. فأرسل إليها القائد أحمد بن عواض .. وأما القائد عامر فكان قد تأخر عن الإمام عندما تقدم إليه .. وذهب إلى مسور والتحق به أحمد المحرابي .. فبقيت مدع بدون عسكر .. فانتهز سنان الفرصة وارتحل إليها من بلاد الطرف حتى وصل إلى هناك .. وحط بساحة مدع وحاصر حصنها وراسل بعض قبائل مسور التي كان ظاهرها المولاة للإمام وباطنها مع الترك .. فراسلوه وأعانوه ضد المجاهدين عامر والمحرابي .

وقاموا بحربهم هناك .. وتضمخت بتلك الأرض دماء علوية مطهرة سفكت بجوانب تلك الوديان .

* * *

كان القائد أحمد عواض قد تربع في قلوب الناس .. عالمهم وجاهلهم..فكان أمره نافذاً في المناطق التي تولاها من صنعاء وخولان ونواحيها حتى من الترك فكان لايطلب شيئاً إلا لبوا طلبه .

وكان المجاهدون معه من خولان وهم وبني مطر والحدا وآنس وقائفه وغيرهم .. فلما أن وصل أرسل إليهم أن يجتمعوا إليه عند سفح جبل أسبيل .

ولما وصلوا إليه شرح لهم مهمتهم .. وأخبرهم بأمر الإمام بالمسير إلى أسناف .. فوافقوه على أمره .. وارتحل بهم وقبل أن يصلوا المدينة جمع القادة ثم حثهم على الجهاد واستشارهم في كيفية الإغارة عليهم .. فتكلم أحد القادة من قائفه .. مقبل بن أحمد : يا حاج .. مالنا تدبير غير تدبيرك .. ولا رأي غير رأيك .. فإنك وكيل الإمام وقد بايعت الإمام وعرفته وأما نحن فتابعون .

فتهللت أساريره .. وراح يوزع القادة على مداخل المدينة ..

وقبل أن يكمل إذا بالصائح بأن الترك يغزونهم .. فهبوا من مقاعدهم للجهاد دون تعبئة .. وقتل كثير من المجاهدين .. ولكنهم واصلوا بحماس وإيمان حتى هزموا الترك .. وأوصلوهم إلى أطراف المدينة .. وتسلل الليل ليفصل بينهم.

وفي الصباح خرجوا براياتهم .. ولكن الأتراك كانوا قد ارتحلوا .. فارتحل القائد إلى خارج المدينة .. عزيمتهم أرفع من هام السماء .. ولكن ما إن خرج منها حتى أقبل الواعظ بجيشه واحتل المدينة .. وراح يطلق عنان غضبه في سفك الدماء وانتهاك المحارم .

وكان بعضهم قد رجع إلى بلاده مثل بعض قبائل حاشد وبكيل .. فجمع من بقي يستشيرهم في الإغارة عليهم .

القائد : أمهلوهم حتى نرسل أهل القبلة وغيرهم .

ولكن أحد القواد من ذوي الحمية والجهاد والتسرع قال لبعض أصحابه من خولان..

أحمد الفاخري : ما يريد الحاج .. إلا تنتظرون أهل القبلة ويفوزون بالذكر و الغنيمة ..

ثم صاح فيهم .. فحمل الناس بدون تجهيز .. فلم يرى القائد أحمد إلا أن يغير معهم .. فوقعت مع الواعظ معركة حصدت من الأتراك أكثر من خمسمائة رجل.

وارتحل بعدها إلى سنحان فقاتل هناك .. واستشهد أحمد الفاخري .. ثم ارتحل إلى القوعة بعد أن أرسل ناصر بن راجح إلى ذمار .

فلما وصل إلى القوعة كان فيها محطة للأتراك .. وكانت مرتفعة في أعلى الوادي .. فجعل أهل خولان من جهة المشرق .. وأهل الحداء من جهة اليمن .. والقائد على بن يوسف من جهة المغرب .. وهو في القلب .. وزحفوا حتى أحاطوا بهم من كل مكان .. فوقعت معركة رهيبة.. وانتهت بألف قتيل من الترك .. وغنم المسلمون السلاح والعتاد .. ولم يهرب منها إلا الواعظ ومجموعة معه ..

ولكن هيهات .. فمن أعان ظالماً أغري به .. فما إن رجع من وقعة أسناف هذه إلى سنان حتى قتله لأنه هزم في تلك الوقعة .

وصار حينها الحق قوة ضاربة تفزع منها علوج الترك هناك .

* * *

بين تلك البيوت الطينية .. كانت الكتائب تطوف ليلاً ونهاراً ترصد أي حركة تبدر هنا أو هناك .. فوضعوا الجميع تحت الإقامة الجبرية بالليل والمراقبة الدائمة في النهار .

ولما قام أمر الإمام واستوى .. أرسل بعض المجاهدين إلى صعدة ليقوموا بالأمر هناك .. فأرسل العلامة علي بن إبراهيم الحيداني والعالم علي بن محمد الجديري وغيرهم .

وقاموا بالجهاد .. وغزوا الترك واستردوا ما أخذ .. فافتتحوا بلاد خولان جميعها .. ودانوا تحت الظلال القاسمية .. وتمنعت عليهم صعدة وبعض رازح .. فلما توجهوا إلى صعدة بجموع كثيفة يحاصروهم ترقفوا على أعتاب رحبان ..

فخرج إليهم مصطفى باشا بجيوش عظيمة .. وتراجع بعض المجاهدين من هـــول ما وقع فيهم من قتل .: ولم تتوقف المعركة .. حتى استشهد منـــهم خمســـمائة مجاهد .

وراح أموي عصره يحتز رؤوسهم جميعاً .. تشفياً وتشفعاً عند أسياده .. وأسـر بعض العلماء من بينهم الأورع علي الجديري وأحضره مصطفى بـين يديـه .. وبكل حقارة راح يرمقه ويزدريه .. ثم تناول بكلتا يديه آلة حادة تشبه الفأس .. وبقلب يلهب ناراً رفع يديه على امتدادهما .. ثم هوى بها .. وهوى معها سـلاح الخيانة ليضرب ذلك الرأس الذي طالما سجد لله .. وتناثرت الدماء .. وتهشـم الجبين الأشم شاكياً لملك السماء .. ظلم هؤلاء .

ولكن الله لم يمهله .. فما هي إلا ثمانية أيام أصيب خلالها .. وكـــان يصيـــح في مرضه يكفي سيدي جديره .. يكفي سيدي جديره .. فقد كان [illegible] يعذبه .

ولما رأى العلامة علي بن إبراهيم قلة الناصر وتضعضع الناس إر[illegible] يحث خيله .. ليصل إلى الإمام في السودة .

ولما وصل بين يديه.. سلم عليه منهك القوى خاوي العزيمة .. متهاوي البنيان. وجثى على ركبتيه .. وراح يخبر الإمام بكل شيء .. حتى أكمل ..

ولم يطرف للإمام جفن أو تهتز له جارحة .. بل طوى لهيب الآلام في قلبـــه .. وضمد جراحه بذكر العلي المجيد ..

فكله لله .. وإنا لله وإنا إليه راجعون .. ﴿ **وسيعلم الذين ظلمـــوا أي منقلـب ينقلبون** ﴾ .

١٥/١١/٢٠٠٠م